

جامعة محمد الأول – وجدة  
الكلية المتعددة التخصصات – الناظور  
مسلك الدراسات الإسلامية  
الفصل السادس  
مسار: القرآن والحديث

ملخص محاضرات وحدة فقه السيرة النبوية

الأستاذ: الدكتور محمد الوالي

السنة الجامعية: 1441 - 1442 هجرية

2020 - 2021 ميلادية

بسم الله الرحمن الرحيم، وبه نستعين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.  
الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد أشرف  
المخلوقين وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد؛ إن حياة الإنسان في هذا الكون ليست إلا لحظة عابرة في التاريخ الممتد،  
فيختار حينها إما أن يعيش كما تعيش الحيوانات التي وإن كانت مسبحة مقبلة على  
الخالق البارئ بالعبودية ينتهي أمرها بالموت والإقبار والمحو من صفحة الوجود.  
وإما أن يختار تخليد نفسه في الحياة الخالدة بالبقاء بعد الموت في نشأة أخرى.

فتصرفات الإنسان قد تكون عابرة ومنتهية كسلوك الحيوانات - وإن كانت أرقى  
منه - وإما أن تكون تصرفاته ذات آثار خالدة نافعة في حياة البشرية.

فقد يكون الإنسان كائنا اعتياديا يشبه الحيوان يعيش وفق سنن سن وجوده عليها ثم  
يموت بعدها دون ترك أثر في صفحة الوجود، وقد يختار أن يكون كائنا مخلداً  
يعيش في ضلال وكنف رب وخالق ومدبر حكيم، إذا اختار الاستجابة لرسوله  
الذي اصطفاه لتبليغ رسالة ربه، فاقنطى بأثره؛ وأستن بسنته.

يقول الله تعالى: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ  
الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا} الأحزاب/21. ويقول سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم: "  
أيها الناس إنما أنا رحمة مهداة." مصنف ابن أبي شيبة (ج 11 / ص 504)  
(32442) صحيح لغيره.

اقتضت حكمة الله تعالى أن يبعث لكل أمة رسولا؛ وجعل خاتمهم سيد الأولين  
والآخرين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: {إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا  
وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ} فاطر/24. {مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّنْ  
رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا} الأحزاب/40.  
فمن أوجب الواجبات على المسلمين تعلم سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم  
وفهم معانيها وحكمها وأحكامها وعبرها ودروسها.. وعموما فالغاية من تعلمها  
تتمثل فيما يلي:

- **أولا:** لأنها التفسير العملي والبيان التطبيقي لدين الله عز وجل وكلامه  
المنزل الذي نزل به الروح الأمين على قلب رسول الله - صلى الله عليه  
وسلم - فسيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - صاحب رسالة عظيمة وقد

بلغها بقوله وطبقها بفعله فحياته بيان ناصع لهذه الرسالة؛ أقواله وأفعاله  
 حركاته وسكناته في الرضا والغضب في اليقظة والمنام في المنشط  
 والمكروه؛ حياته - صلى الله عليه وسلم - كلها تفسير عملي لدين الله ولكلامه  
 المنزل. عَنْ يَزِيدَ بْنِ أَبِي نَوْسٍ، قَالَ: دَخَلْنَا عَلَى عَائِشَةَ، فَقُلْنَا: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ،  
 مَا كَانَ خُلُقَ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -؟ قَالَتْ: كَانَ خُلُقَهُ الْقُرْآنَ  
 تَقْرَأُونَ سُورَةَ الْمُؤْمِنِينَ؟ قَالَتْ: إِفْرَأُ: (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ) قَالَ يَزِيدُ: فَقَرَأْتُ:  
 قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ - إِلَى: لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ. قَالَتْ: كَانَ خُلُقَ رَسُولِ اللَّهِ -  
 صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -. أخرج البخاري في (الأدب المفرد) (308) وهو  
 صحيح. أي كان يفسر القرآن تفسيراً عملياً بخلقه - صلى الله عليه وسلم -.  
**- ثانياً:** جعل الله تعالى سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم في مقام الأسوة  
 والقدوة لعباده المؤمنين، لكونه النموذج الأعلى للكمال البشري الذي من  
 الواجب علينا شرعاً التأسى والإقتداء به واتباعه فيما جاء به عن ربه عز  
 وجل.

فكثير من الناس يتخذون نماذج من البشر يُعجبون بأحوالهم فيقلدونهم ويحاكونهم  
 وربما قلدوهم في سائر أحوالهم حتى في هيبتهم وألبستهم؛ أما سيدنا محمد - صلى  
 الله عليه وسلم - فليس المطلوب منا أن نقلده ونحاكيه، وإنما المطلوب أن نتأسى  
 وأن نفتدي به ونتبعه وننقاد لأمره - صلى الله عليه وسلم - وفرق بين هذا وذاك؛  
 فإن التقليد والمحاكاة غالباً ما يكونان عن غير بصيرة بخلاف التأسى والاقتران  
 بالنبى - صلى الله عليه وسلم - وأتباعه، فإن ذلك لا يكون إلا عن علم وبصيرة  
 لأنه على سبيل التدين والتقرب إلى الله تبارك وتعالى؛ قال سبحانه: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ  
 فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا}  
 الأحزاب/21.

فهذه هي حال من يتأسى بالنبى المصطفى - صلى الله عليه وسلم - إنه مؤمن  
 يعرف الإيمان يعرف الله يعرف اليوم الآخر، فهو يرجو الله ويرجو اليوم الآخر.  
 بل إلى جانب ذلك منقاد لدين الله عز وجل فهو يذكر الله كثيراً وهذه هي البصيرة.

**- ثالثاً:** وجوب حب الرسول صلى الله عليه وسلم وتعظيمه وتوقيره

ومعرفة مقامه مع الاتباع. قال تعالى: {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ  
 الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ  
 عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ  
 وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ  
 الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} الأعراف/157.

قد يعتمد بعض الناس إلى تقليد أحد الأشخاص العظماء واتباعه والانقياد لأمره ولا  
 يلزم ذلك بالضرورة إخلاص الحب له فقد يقلده وينقاد إليه خوفاً منه أو طمعا فيما

عنده من عَرَضِ الدنيا، أما سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - فيجب علينا مع تأسينا به واتباعنا لأمره - صلى الله عليه وسلم - يجب أن نوقره ونعظمه ويجب أن نحبه - صلى الله عليه وسلم - وذلك للأمر الآتية:  
 أولها- لأن الله تبارك وتعالى أمرنا بذلك بل قد قرن سبحانه وتعالى حبه بحب نبيه - صلى الله عليه وسلم - وجعلهما من أوجب الواجبات ووعده بالعقوبة من يخل بهما فقال تعالى: { قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ } التوبة:24.

فبين لنا ربنا عز وجل في هذه الآية أن حبنا لله وحبنا لرسوله - صلى الله عليه وسلم - يجب أن يكون أعظم من حبنا وميلنا لهذه الأشياء المذكورة ولغيرها من محبوبات الدنيا التي يمكن التعلق بها.  
 وثانيها- وهي أن الله سبحانه وتعالى أحب نبيه محمدا - صلى الله عليه وسلم - فوجبت محبته لأن الله جل جلاله أحبه، بل لقد اتخذه خليلا ،والخلة درجة أعظم من المحبة، فمن كان يحب الله فيجب عليه أن يحب محبوبات الله ، وأعظم محبوبات الله وأجلها هو نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - ، ولذلك فإن أكبر علامة على حب العبد لربه حبه للرسول - صلى الله عليه وسلم - ، والدليل على صحة حبه له - صلى الله عليه وسلم - هو اتباعه له وتأسيه به ،ولذا قال سبحانه: { قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ } آل عمران/31.

إن شخصيته أهل لأن تحب، فإنها تمثل جانب الكمال البشري بكل ما في هذا الكمال من حسن وجمال، كما تمثل جانب الوحي الإلهي بكل ما في هذا الجانب من جلال وقدسية.

فشخصيته - صلى الله عليه وسلم - جمعت بين جمال الكمال البشري وروعة وجمال الوحي الإلهي فكيف لا تحب؟، فعن أنس بن مالك قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - " لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ " . صحيح مسلم (178)، وفي رواية: " لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين " (صحيح البخاري (15)، صحيح مسلم

(44) عن أنس بن مالك رضي الله عنه.)

وبما أنه الرسول الخاتم، فكان لزاماً أن تحفظ سيرته، ومناقبه كلها، لأنه المثل الأعلى للبشرية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وقد دَوَّن المسلمون سيرته العطرة منذ عصر الصحابة، وكتبت فيها كتب لا تعد ولا تحصى.

وفي عصرنا الراهن أُلِّفت كتب كثيرة في علم السيرة النبوية؛ منها: "السيرة النبوية" للعلامة محمد عزة دروزة، و"السيرة النبوية" لأبي شهبه، و"محمد رسول الله" للصادق عرجون، و"السيرة النبوية" للندوي و"دراسة في السيرة" للدكتور عماد الدين خليل، و"السيرة النبوية" للدكتور علي محمد الصلابي، وهو من أفضل ما أُلِّفَ فيها.

وكتب في فقه السيرة النبوية الكثير من المصنفات، مثل: "زاد المعاد في هدي خير العباد"، إلى السيرة الشامية، إلى فقه السيرة للغزالي والبوطي والسباعي، بل كتبت كتب متخصصة في جانب من جوانب حياة الرسول - صلى الله عليه وسلم - السياسية والتربوية والدعوية والأسرية والتشريعية والعسكرية ... ذلك لأن السيرة النبوية زاد لا ينقطع، ومعين لا ينضب على مرّ الدهر..

### تحديد المفاهيم الأساسية في الموضوع:

أولاً: كلمة الفقه: تطلق كلمة الفقه في اللغة على الفهم مطلقاً كما في قوله تعالى مخبراً عن الحوار بين شعيب وقومه: { ما نفقه كثيراً مما تقول } وفي قوله سبحانه في حق الكفار: { فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً } وقوله عز وجل: { وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم } . وفي الاصطلاح الفقه هو العلم بالأحكام الشرعية العملية التكليفية المكتسبة من أدلتها التفصيلية.

ثانياً: كلمة السيرة

### معنى السيرة النبوية

التعريف بالسيرة النبوية

السيرة لغة: السنة والطريقة والهيئة والحالة التي يكون عليها الإنسان وغيره. والسيرة النبوية وكتب السيرة: مأخوذة من السيرة بمعنى الطريقة، وأدخل فيها الغزوات وغير ذلك. ويقال قرأت سيرة فلان: أي تاريخ حياته.

السيرة النبوية المطهرة تبحث:

- أولاً: في حياة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - منذ إرهابات مولده حتى انتقاله إلى الرفيق الأعلى.

- ثانياً: في حياة صحابته الذين جاهدوا معه، وصدقوا ما عاهدوا الله عليه.

- ثالثاً: في تاريخ انتشار هذا الدين الذي ابتدأ بكلمة اقرأ في غار حراء نزل بها

الأمين جبريل عليه السلام على الأمين محمد - صلى الله عليه وسلم - إلى أن دانت الجزيرة العربية به، ودخل الناس في دين الله أفواجا.

وفقه السيرة النبوية هو فهم معانيها ومقاصدها وما تحتويه من الحكم والأحكام والدرر والمواعظ والدروس التي يستلهم منها المسلمون منهج الحياة ومعالجة مشاكل العصر ومستجداته.

### الطريقة التي كتبت بها السيرة النبوية:

كتبت السيرة النبوية بنفس الطريقة التي كتبت بها السنة النبوية حيث رويت كما هي دون دخول رأي الراوي { الأمانة في النقل ، التزام السند والتمتن ، وتوفير شروط الصحة }

كتابة السيرة النبوية بشكل موضوعي خلاف الطريقة الغربية المنسوبة إلى فرويد.

في أوائل القرن 19 م حصل تطور تراجعي في كتابة السيرة النبوية بعد قدرة بريطانيا على تغيير المناهج التعليمية؛ بحجة أنها سبب الضعف الذي يعاني منه المجتمع المصري مقارنة مع المجتمع الغربي المتقدم بسبب مناهجه التعليمية.. {ظهر كتاب «حياة محمد» لحسين هيكل بما شكله من تحول جذري جرد السيرة النبوية من المعجزات والغيبيات مقابل الحديث عن الخوارق والزعامة - حادثة الإسراء والمعراج أصبحت رحلة روحية لا علاقة لها بالغيب...}

أخفيت معالم النبوة في السيرة النبوية وتم استبدالها بعبقرية محمد السياسية والعسكرية.. وفق رؤية المستشرقين.

القضاء على هذا الاتجاه في تأليف السيرة النبوية بفضل جهود العلماء ورثة النبي صلى الله عليه وسلم ومؤلفاتهم في فن السيرة النبوية ومنه كتاب «فقه السيرة النبوية مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة» لفضيلة الشيخ الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي رحمه الله تعالى، " السيرة النبوية: دروس وعبر " لفضيلة الأستاذ الدكتور مصطفى السباعي، " فقه السيرة النبوية " للشيخ الأستاذ الدكتور محمد الغزالي .....

## دراسة السيرة النبوية وأهميتها في المنهج الإسلامي

النبي الخاتم والرسول الأمين سيدنا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم قد أمرنا الله تبارك وتعالى بالتأسي به وجعله قدوتنا في الحياة يقول تعالى: (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر) الأحزاب 21، كما أمرنا الله تعالى بمحبته (قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين) التوبة 24.. فكيف يتحقق هذا الاقتداء ويتصل القلب بهذه المحبة دون دراسة سيرته العطرة - صلى الله عليه وسلم -؟!!

إن بعض المناهج الدراسية تغفل دراسة السيرة النبوية إما عن عدم التفات لأهميتها ومكانتها في المنهج الإسلامي ودورها في بناء الفهم الإسلامي المستقيم، وإما عن توجس مما قد يكون اعتراها مما يعتري كتب التاريخ عادة من بعض الأخطاء، كما تعتمد بعض الدراسات إلى استنطاق مواقف السيرة أحكاما ودلالات تخدم توجهها مذهبيا أو حزبيا معينا بصرف النظر عن احتمال هذه المواقف تلك التأويلات والنتائج من عدمه..

والواقع أن المنهج الإسلامي في حاجة إلى دراسات تعيد للسيرة النبوية المطهرة مكانتها وترد إليها اعتبارها بوصفها واحدة من أهم مصادر الفهم الإسلامي الصحيح للدين الذي جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، وكذا تنقيتها وتنقيحها من كل تأويل خاطئ أو فهم مغلوط قد لحق بها أو اختلط بمنهجها، عسى أن يساهم ذلك في التمهيد لتلك الدراسات المرجوة لإعادة السيرة النبوية إلى مكانتها الطبيعية اللائقة..

أولا أهمية دراسة السيرة النبوية في المنهج الإسلامي:

1 - السيرة النبوية كما ذكرنا هي عبارة عن مذكرة تفسيرية للقرآن الكريم.. أو هي التطبيق العملي للقرآن، أو التفسير العملي للقرآن، فلا شك أن النبي سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - هو أول وأعظم من فهم القرآن الكريم، فهو مبلغ الرسالة عن ربه عز وجل، وهو أعظم من فسر هذا الكتاب المجيد، كما أنه - صلى الله عليه وسلم - لم يقدم تفسيره للقرآن في أقوال منطوقة - أحاديث نبوية - فحسب، ولا قدم تفسيره هذا بين دفتي كتاب يُقرأ، وإنما قدم هذا التفسير وذلك الفهم من خلال حياته العملية النموذجية والدعوية كلها، فكانت حياته كلها ترجمة فعلية حية للقرآن الكريم، فقد كان - صلى الله عليه وسلم - كما قالت عنه السيدة عائشة رضي الله عنها: (خلقه القرآن أو كان قرآنا يمشي على الأرض)، كما تعد مواقف السيرة النبوية كلها أرضا خصبة للمفسرين بما توفره من معرفة

أسباب نزول الآيات والمواقف التي نزلت فيها ، وكيفية تطبيق الجيل الأول من المسلمين لها ، حتى يكاد يستعصي علينا فهم بعض معاني القرآن الكريم في معزل عن الحياة والبيئة التي تنزل فيها ، وهي ما تعرف بالسيرة النبوية المطهرة.

2 - ضمان عدم الغلو أو التعسف في فهم النصوص وضبط ذلك بتطبيق النبي - صلى الله عليه وسلم - .. ولا توفر السيرة النبوية - وهي التي تجمع مواقفه - صلى الله عليه وسلم - كلها - تفسيراً دقيقاً للقرآن الكريم بالمعنى اللغوي فحسب، بل ترقى إلى مستوى تعطينا معه أهم عنصر من عناصر ضبط الفهم الإسلامي بعيداً عن الغلو أو الخطأ أو التعسف في الفهم والتطبيق، لأننا حين نجمع النصوص الشرعية ونضعها إلى جانب طريقة تطبيق النبي - صلى الله عليه وسلم - لهذه النصوص، مع إيماننا المطلق بأن النبي سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - هو أعلم أهل الأرض بمراد الله تعالى من قوله، وأنه أوتي القرآن ومثله معه وهو الحكمة. (كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون) البقرة 151، (واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفاً خبيراً) الأحزاب 34، ندرك أنه ليس بإمكاننا فهم النصوص قرآناً وسنة فهماً لغوياً مجرداً في معزل عن طريقة تطبيق النبي لها، ونحن مأمورون في كتاب الله بطاعته وإتباعه (من يطع الرسول فقد أطاع الله) النساء 80 (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) آل عمران 31، وهو القائل: "خذوا عني مناسككم" .. ومثال على ذلك قوله تعالى: (يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين وأغظ عليهم) التحريم 9، ورغم أن حدود اللغة تقطع بأن جهاد الكفار والمنافقين على حد سواء ، وأن المنافقين معطوفة على الكفار ، غير أن تطبيق النبي - صلى الله عليه وسلم - للنص ، وامتناعه من قتل عبد الله بن أبي بن سلول رأس النفاق وزعيم المنافقين ، ونهيه ابنه عبد الله بن عبد الله بن أبي من ذلك " بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا، وكذا نهيه عمر بن الخطاب عن ذلك وحمايته من القتل وقوله لعمر : " حتى لا تحدث العرب أن محمداً يقتل أصحابه" .. وكذا حمايته لدماء المنافقين بعدم إفشاء سرهم للصحابة واستئمان حذيفة بن اليمان وحده على ذلك ، كل ذلك يضعنا أمام فهم مغاير تماماً للمعنى اللغوي للآية الكريمة ، ويقدم لنا تفسيراً عملياً يتعدى حدود اللغة المجردة إلى فهم أعمق وأشمل ، ونجد أنفسنا في النهاية مسلمين بطريقة تطبيق النبي - صلى الله عليه وسلم - عبادة وطاعة وإتباعاً ، وعلى ذلك نستطيع أن نحكم على فهم من يطالب بقتل المنافقين والعملاء مستشهداً بالآية الكريمة في معزل عن تطبيق النبي لها ، بأنه فهم مغلوط لا يتفق وطبيعة المنهج الإسلامي ، وهذا هو تفسير المفسرين للآية على ضوء تطبيق النبي - صلى الله عليه وسلم -



لها ؟ : وقال ابن عباس: أمره الله تعالى بجهاد الكفار بالسيف والمنافقين باللسان وأذهب الرفق عنهم، وقال الضحاك: جاهد الكفار بالسيف وأغلظ على المنافقين بالكلام وهو مجاهدتهم وعن مقاتل والربيع مثله؛ وقال الحسن وقتادة ومجاهد: ومجاهدتهم إقامة الحدود عليهم. وقد يقال إنه لا منافاة بين هذه الأقوال لأنه تارة يؤاخذهم بهذا وتارة بهذا بحسب الأحوال والله أعلى وأعلم.. ومثل ذلك ينطبق على كثير من النصوص قرآنا وسنة..

3 - ربط القلوب بصاحب السيرة العطرة محمد - صلى الله عليه وسلم -، فمن دواعي وأسباب تحقيق محبته دراسة سيرته ومواقفه وحياته كلها.. فتحقيق محبة الرسول - صلى الله عليه وسلم - من أهم واجبات المسلم في الحياة لتحقيق الإيمان الكامل، يقول النبي - صلى الله عليه وسلم -: " لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين "، وقوله - صلى الله عليه وسلم - من حديث عمر بن الخطاب في البخاري: " لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه " والسيرة النبوية هي من أهم وسائل تحقيق هذه المحبة واستقرارها في القلوب..

4 - تقديم قدوة عملية خالدة للأجيال المسلمة على مر العصور من خلال حياة الرسول - صلى الله عليه وسلم - وصحابته كقصة حياة كاملة.. يقول الله تبارك وتعالى (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله)، ويقول تعالى (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة)، ولما بسط الله تعالى بعض قصص الأنبياء في سورة الأنعام عقب على ذلك بقوله: (أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده) ال أنعام 90.. فالمطالبة بالافتداء بالنبي محمد - صلى الله عليه وسلم - تستوجب دراسة مسيرة حياته بكل دقائقها وتفصيلها للتأسي بها في كل موقف من مواقف الحياة المعاصرة..

5 - المضي على منهج القرآن الكريم الذي قص علينا سيرَ الأنبياء السابقين مثل (آدم - نوح - إبراهيم- يوسف - موسى - عيسى وأمه مريم.. عليهم جميعا وعلى نبينا الصلاة والسلام) بصورة شبه كاملة تقريبا.. فأصبح لزاما علينا أن نجتمع سيرة نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - كذلك، لتحقيق الأهداف التي من أجلها بسط الله تعالى سير الأنبياء عموما..

6 - السيرة النبوية مع الحديث النبوي الشريف يمثلان معا السنة النبوية وهي المصدر الثاني بعد القرآن الكريم من مصادر التشريع الإسلامي ، لأن السنة النبوية تشمل القول والفعل والتقرير ، وإذا كان علم الحديث يقوم في المقام الأول على الأقوال فإن المواقف والأفعال والمواقف التقريرية تعتبر عماد السيرة النبوية، وإذا كانت كتب السنة والصحاح قد حوت كل ذلك دون تفرقة بين الحديث المنطوق وبين المواقف المختلفة ، إلا أنه جاز جمع ما يمثل سيرته - صلى الله عليه وسلم - جمعاً مستقلاً لتحقيق الأهداف المرجوة من دراسة السيرة النبوية ..

يقول الدكتور البوطي عن كتب الحديث : " وإن كانت عناية هذه الكتب الأولى تنصرف إلى أقوال رسول الله وأفعاله من حيث أنها مصدر تشريع لا من حيث هي تاريخ يُدون."

7 - جاءت الشريعة الإسلامية تحت على العناية بالسيرة النبوية العطرة.. يقول بعض الصحابة : " كنا نعلم أبناءنا الغزوة من غزوات النبي كما نعلمهم السورة من القرآن " ، وإذا رجعنا إلى أحاديث جابر بن عبد الله الأنصاري الطوال نجده يروي عن بعض غزوات النبي - صلى الله عليه وسلم - ، مثل ما رواه عنه في غزوة الأحزاب وغيرها ، وحديث كعب بن مالك عن المخلفين عن غزوة تبوك وهو حديث طويل دخل ولا شك في باب القصص التاريخي في المقام الأول ، حتى إن أول من جمع المغازي كانوا أبناء الصحابة من أمثال عروة بن الزبير وأبان بن عثمان بن عفان، وقد سمح أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه لتميم الداري بالجلوس مرة واحدة في الأسبوع في مسجد الرسول - صلى الله عليه وسلم - ليقص سيرة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقصصه وأخبار الأمم السابقة ..

8 - السيرة النبوية عبارة عن قصص، وهي أسهل المواد العلمية دراسة واستيعابا، بسبب طبيعة القصص المتميزة بالتشويق والتأثير وسهولة الفهم والثبات في النفس والاستقرار في الذهن، ولذلك ركز القرآن الكريم على القصص: ( نحن نقص عليك أحسن القصص) يوسف 3، ومن خلال قصص السيرة يتم إحاطة الدارس بكثير من علوم الإسلام وينشرب معانيها دون كثير جهد وعناء..

9 - تحقيق شدة التعلق بالرسالة نفسها وهي دين الإسلام الذي بذلت في سبيله هذه التضحيات الجسام التي تزخر بها سيرة النبي - صلى الله عليه وسلم - وصحابته أجمعين.. إن دراسة هذه السلسلة المتصلة من العطاء الدائم الذي لا ينقطع والتضحيات الضخمة والجهاد المرير يغرس في قلوب الدارسين قيمة الكنز الذي بين أيديهم فيتمسكون به..

10 - دراسة السيرة جزء من دراسة التاريخ، وتكمن أهمية دراسة التاريخ فيما يلي:

- أ - إن التاريخ يعيد نفسه، لأن مشكلات الإنسان تكاد تكون متكررة لا تتغير على وجه الحقيقة، ويجب حلها في ضوء ما تم حلها به سابقا.. وهذا ما أشار إليه الإمام مالك بن أنس بقوله: "لن يُصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها"
- ب - التاريخ ذاكرة الشعوب ومن يفقد ذاكرته فلا حاضر ولا مستقبل له..
- ج - تعميق هوية وأصالة الأمة والشعوب والحفاظ على التراث..

د - يعتبر للتاريخ أهمية خاصة في الأمم صاحبة الرسالة المستمرة المتصلة، لأنه يعينها على فهم طبيعة الرسالة، والثقة في إمكانية تحقيقها على أرض الواقع كما تحققت في عهود سابقة.. والإسلام على وجه الخصوص والتحديد قد ردم الفجوة بين النظرية والتطبيق، فما ظهرت نظرية من النظريات على وجه الأرض إلا وحدث بينها وبين التطبيق الواقعي فجوة طبيعية لاستحالة تطبيق النصوص تطبيقاً كاملاً على أرض الواقع، إلا دين الإسلام ونصوصه لأنه من لدن حكيم خبير يعلم من خلق، وليس هناك شاهداً على إمكانية تطبيق النصوص تطبيقاً واقعياً كاملاً خير من السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي في عصور الالتزام بالمنهج الرباني.. هـ - اهتمام القرآن الكريم اهتماماً بالغاً بتاريخ الأمم والشعوب السابقة وتركيزه على معنى الوحدة البشرية منذ بدء خلق الإنسان.. ومطالبته لنا بأخذ الدروس والعبر من التاريخ (أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) الروم:9. و - تقدم السيرة النبوية تعريفاً واقعياً للمسلم المعاصر الذي يعيش في عالم اليوم بتاريخه العريق.. ولتبسيط هذا المعنى نقول بأن الإنسان الذي يسعى إلى تولى منصب أو شغل أو وظيفة يلزمه الإدلاء بشهادات الخبرة السابقة والسيرة الذاتية، والمسلم اليوم إذا أراد تقديم نفسه للعالم فلا بد أن يقدم نفسه على اعتبار أنه إنسان له تاريخ حضاري مجيد يعينه على استشراف دوره في حاضر العالم ومستقبله..

ثانياً: ضوابط دراسة السيرة النبوية.

لا يخفى بعدما تقدّم أن دراسة السيرة النبوية المطهرة لها من الأهمية البالغة العظيمة ما يدفعنا إلى وجوب وضع الضوابط المنهجية التي يحول الأخذ بها دون تحويلها إلى نوع من اللهو أو العبث أو التسلية التي لا تحقق الأهداف المنهجية المرجوة من دراستها، ونذكر في هذا المقام أهم هذه الضوابط:

- 1- ضابط التوثيق وفق المنهج الإسلامي في حفظ وتوثيق السنة النبوية الشريفة، ويعتبر هذا الضابط من أهم الضوابط ويتعلق بالكتب والدراسات القديمة على الخصوص، لغاية تنقية هذه الكتب من الخرافات والإسرائيليات والموضوعات.. وهذا يتحقق بالتنقيح في ضوء منهج علوم الحديث، وهو ما نجده حاضراً في الدراسات الحديثة لعلماء الأمة لسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم...
- 2 - تجرد الدارس والباحث والكااتب في السيرة النبوية من كل الأهواء والميولات الشخصية، وعدم الخضوع عند تفسير حوادث ووقائع السيرة واستخراج الدروس للأحكام المسبقة والميولات المذهبية والحزبية والفكرية، وهو أهم ضابط يتعلق بالدراسات والكتب الحديثة والمعاصرة.. وهكذا تبقى السيرة نبعا صافيا ينهل منه

كل دارس على مر العصور فهي بكر متجددة للاهتداء بها في كل موقف وحدث متجدد وكل عصر ومصر..

3 - استبعاد كتب ودراسات المستشرقين والمتأثرين بهم بصفة مطلقة بسبب منهجهم الذي يقوم على الأحكام المسبقة الجاهزة وغياب الموضوعية.. ولما تمثله مدرستهم من تشكيك في وقائع السيرة من ناحية، ومن تفسير وفهم خاطئ للمواقف من ناحية أخرى، وكذا عدم اعتمادهم في الأعم الأغلب على منهج التوثيق الإسلامي الدقيق زيادة على عدم إلمامهم بعلم الرجال والجرح والتعديل وغير ذلك من علوم الحديث التي توثق وقائع السيرة النبوية، بالإضافة إلى موقفهم المنكر للمعجزات..

ثالثاً: تطور دراسة السيرة النبوية عبر العصور

الذي يهمننا في هذا المقام هو إبراز أهم المراحل التي تمثل منعطفات أو ركائز أساسية في دراسة ورواية السيرة النبوية ويُمكن تلخيص هذه المراحل كالآتي:

1 - مرحلة الرواية.. إن معظم دراسات السيرة تركز على مرحلة التجميع باعتبارها المرحلة الأولى من مراحل دراسة السيرة النبوية، وهنا يجب لفت النظر إلى أن التجميع إنما قام ويقوم على الرواية في المقام الأول، ولذا فإن المرحلة الأولى من مراحل دراسة السيرة النبوية كانت مرحلة رواية الأحداث والتي بدأها الصحابة رضوان الله عليهم من رواة الأحاديث النبوية وهي الأحاديث التي تتناول المواقف والأحداث والتي تبدأ عادة بمثل قولهم: كنا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ... ويلحق بذلك تميم الداري الذي أجلسه عمر بن الخطاب في مسجد رسول الله يقص على الناس يوماً في الأسبوع فلما كانت خلافة عثمان بن عفان سمح له بيومين .. وكان ذلك بلا شك في العشرين سنة التالية لوفاة النبي - صلى الله عليه وسلم -..

2 - مرحلة التجميع وهي التي تصدّرها عروة بن الزبير وأبان بن عثمان بن

عفان ووهب بن منبه وشرحبيل بن سعد وابن شهاب الزهري

3 - مرحلة التدوين ومثلها محمد بن اسحاق المتوفي سنة 152 هـ

4 - مرحلة التوثيق والتنقيح والتهديب ومثلها ابن هشام الذي هذب كتاب بن

إسحاق وأخرجه لنا في واحد من أهم المصادر القديمة للسيرة النبوية على

الإطلاق (سيرة ابن هشام)

5 - مرحلة المستشرقين وتلاميذهم، من أمثال: مايكل هارث؛ ونولدكة؛

وبنود دورنو لدكه؛ وجولد تسهير؛ وبتودور نولدكة ومونتجمري وات

وجوستاف لوبون وستانلي بول وغيرهم. وتعتبر هذه الحقبة منعطفاً خطيراً

في تناول السيرة النبوية، بدأ خصوصاً من النصف الثاني من القرن التاسع

عشر ميلادي لخطورة فهم هؤلاء وخطورة منهجهم الذي اعتمد ما يعرف بالمنهج الذاتي في تناول التاريخ وهو منهج يقدم ذاتية الكاتب عن وثائقية الوقائع ، بل يكاد يهمل علوم التوثيق جملة وتفصيلا وهي المرحلة التي أخرجت لنا مفهوم العبقريّة المحمدية ، وبثت شكوكا حول العلاقات الأخوية المتميزة بين الصحابة رضوان الله عليهم ، والتي شككت كذلك في معجزات النبي - صلى الله عليه وسلم - الحسية المختلفة الثابتة بطرق الثبوت الإسلامية المختلفة .. (ينظر: "المستشرقون والإسلام" إبراهيم اللبان، عبد الله محمد الأمين النعيم: الإستشراق في السيرة النبوية، دراسة تاريخية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي)

6 - مرحلة الصحوة ، وهي المرحلة التي تعد انقلابا على مرحلة المستشرقين والتي أعادت للسيرة النبوية بهاءها باعتماد المنهج العلمي ، ثم تواصلت على النحو بالاعتماد على المنهج التحليلي والاستنباطي لاستخراج الدروس والأحكام، وهي المرحلة التي يطمئن الدارس والباحث لإنتاجها في مجموعته ، ويمثل هذه المرحلة - على سبيل المثال: - الدكتور مصطفى السباعي ( السيرة النبوية دروس وعبر) - الشيخ الخضري - الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي ( فقه السيرة ) - المباركفوري ( الرحيق المختوم ) - عماد الدين خليل ( دراسات في السيرة ) - محمد أحمد باشميل ( معارك الإسلام الفاصلة ) - الدكتور محمد الغزالي ( فقه السيرة ) ، وغيرهم.

رابعا: منهج مقترح لتناول السيرة النبوية في ضوء ضوابط تجعل دراستها والاهتداء بها ملزمة للمسلمين مثلها مثل فروع الإسلام من تفسير وحديث وفقه وعقيدة:

1 - جمع سيرة النبي - صلى الله عليه وسلم - أساسا من القرآن الكريم. حيث تعددت المواضع التي تناولت حياة النبي - صلى الله عليه وسلم - فنجد إلقاء الضوء على صفاته والأحداث التي عاصرتها ، وقد عرّفنا القرآن الكريم بالسنة التي ولد فيه النبي عليه السلام والمعروفة بحادثة الفيل التي سجلها القرآن في سورة الفيل - ونحن نعلم أشياء عن البيئة التي نشأ فيها من وأد البنات وشرب الخمر ولعب الميسر وعبادة الأوثان من آيات القرآن - ونعلم أنه يتيم من قوله تعالى : ( ألم يجداك يتيما فأوى ) الضحى6 - ونعلم أنه أمي لا يقرأ ولا يكتب من قوله تعالى : ( وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون ) العنكبوت29 ، ( الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة ) الأعراف 157 - ونتعرف على حوادث ووقائع كثيرة في حياة النبي - صلى الله عليه وسلم - من القرآن الكريم مثل : الإسراء والمعراج - الهجرة - بناء مسجد قباء - غزوة بدر - غزوة أحد - يهود بني

النضير - الأحزاب - صلح الحديبية - فتح مكة - غزوة حنين - غزوة تبوك -  
حادثة الإفك - مواقف المنافقين من النبي - كفالته لزيد بن حارثة - زواجه من  
زينب بنت جحش - شغب زوجاته عليه في سورة التحريم - استماع الجن للقرآن  
والرسالة .. )

2 - جمع السيرة ثانيا من الأحاديث النبوية الشريفة بعد تحقيقها، وفقا لمنهج  
الكتب الصحاح، وهو أمر نجده حاضرا في بعض الدراسات الحديثة للسيرة  
النبوية مثل فقه السيرة للشيخ محمد الغزالي بتحقيق الشيخ الألباني..

3 - ملء الفراغات واستكمال صور الأحداث والوقائع من روايات الصحابة  
والتابعين الموثقة ومن أقوال المفسرين في تفسير الآيات وأسباب نزولها..

4 - ربط دراسة السيرة بعلم أصول الفقه.. بمعنى التزام مناهج الأصوليين في  
استخراج الأحكام والعبر والعظات والدروس من السيرة باعتبارها من أصول  
التشريع كفرع من السنة النبوية مع الحديث الشريف وعدم تركها لأهواء الكتاب  
والدارسين والباحثين.. حماية للفهم الإسلامي من الشذوذ أو الغلو أو الخطأ ،  
وحماية للسيرة من التأويل الخاطئ ، أو لي أعناق الوقائع والأحداث إلى أحكام  
أبعد ما تكون عن مقاصدها الحقيقية ، ومثال على ذلك ما يؤكد الدكتور البوطي  
عن منهجه في كتابة فقه السيرة فيقول : " ولقد استنبطت من أحداث السيرة النبوية  
طبعا لهذه القواعد أحكاما كثيرة منها ما يتعلق بالاعتقاد واليقين ، ومنها ما يتعلق  
بالتشريع والسلوك ، والمهم في هذا الصدد أن نعلم أنها جاءت منفصلة عن  
التأريخ وتدوينه ، بعيدة عن معناه ومضمونه ، وإنما كانت نتيجة معاناة علمية  
أخرى نهضت في حد وجودها على البنیان التاريخي الذي قام بدوره على القواعد  
العلمية التي ذكرناها " ص216.

والحقيقة التي يجب أن يؤمن بها الدارسون والباحثون هي أن لتفسير أحداث  
السيرة النبوية قدسية مثل تفسير القرآن الكريم، فهي داخلة في الحكمة التي قرنها  
الله تعالى في أكثر من موضع مع الكتاب الذي أنزله على رسوله صلى الله عليه  
وسلم. وهذا الفهم القويم هو الذي قرره علماء التفسير بأن معنى الحكمة في الآيات  
البيانات هو السنة النبوية استشهادا بقوله صلى الله عليه وسلم: " إني أوتيت القرآن  
ومثله معه".

**فقه بعض الأحداث من سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم:**

- بعض أحداث ما قبل البعثة النبوية:

**الأول:** ولادة الرسول صلى الله عليه وسلم وحال العقيدة في زمن ولادته:  
والده صلى الله عليه وسلم عبد الله بن عبد المطلب؛ وأمه آمنة بنت وهب.  
قال ابن عباس: " ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الفيل وكان والده قد  
توفي وأمه حامل" قال الهيثمي: رواه البزار والطبراني في الكبير ورجاله  
موثقون، انظر: إبراهيم العلي، صحيح السيرة النبوية ص48، حاشية 4؛ طبعة  
عمان سنة 1999م.

ولادة الرسول عليه السلام بعد وفاة أبيه وأمه حامل به؛ رواه ابن هشام محمد بن  
عبد الملك في "السيرة النبوية" تحقيق جمال ثابت وآخرون؛ ج1/ ص120،  
طبعة القاهرة سنة 2006م.

**ثانياً:** المكان الذي ولد فيه الرسول صلى الله عليه وسلم وهو الجزيرة العربية في  
مكة المكرمة في عام الفيل.

ابن هشام؛ السيرة ج1/ص121 و122.

**ثالثاً:** شرف نسب الرسول صلى الله عليه وسلم

روى البخاري في صحيحه نسب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وهو: " محمدُ  
بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ بْنِ قُصَيِّ بْنِ كِلَابٍ بْنِ مُرَّةَ بْنِ  
كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ بْنِ غَالِبِ بْنِ فِهْرِ بْنِ مَالِكِ بْنِ النَّضْرِ بْنِ كِنَانَةَ بْنِ خَزِيمَةَ بْنِ مُدْرِكَةَ  
بْنَ إِيَّاسِ بْنِ مُضَرَ بْنِ نَزَارِ بْنِ مَعَدِّ بْنِ عَدْنَانَ "

وقد قال النبي عليه السلام: " إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى  
قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَى مِنْ بَنِي هَاشِمٍ " رواه  
مسلم في صحيحه.

وقال عليه السلام: " ... إِلَّا أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَ خَلْقَهُ فَجَعَلَنِي مِنْ خَيْرِ خَلْقِهِ، ثُمَّ  
فَرَقَهُمْ فِرْقَتَيْنِ فَجَعَلَنِي مِنْ خَيْرِ الْفِرْقَتَيْنِ، ثُمَّ جَعَلَهُمْ قِبَائِلَ فَجَعَلَنِي مِنْ خَيْرِهِمْ قَبِيلَةَ،  
ثُمَّ جَعَلَهُمْ بِيوتاً فَجَعَلَنِي مِنْ خَيْرِهِمْ بَيْتاً، وَأَنَا خَيْرُهُمْ بَيْتاً وَخَيْرُهُمْ نَفْساً " صلى الله  
عليه وسلم. رواه الإمام أحمد قال الهيثمي: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح،  
انظر العلي؛ صحيح السيرة؛ ص27؛ حاشية 2.

رابعاً: مرضعته صلى الله عليه وسلم ونشأته في بادية بني سعد وحادثة شق صدره.

حضنته أم أيمن وأول من أرضعته ثويبة: حضرت النبي صلى الله عليه وسلم حاضنته أم أيمن بركة الحبشية أمة أبيه، وأول من أرضعته ثويبة أمة عمه أبي لهب. فمن حديث زينب ابنة أبي سلمة، أن أم حبيبة رضي الله عنها أخبرتها: أنها قالت: يا رسول الله! أنكح أختي بنت أبي سفيان، فقال: «أوتحبين ذلك؟» فقلت: نعم، لست لك بمخلية، وأحب من شاركني في خير أختي. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «إن ذلك لا يحل لي» قلت: فأنا نحدث أنك تريد أن تتكح بنت أبي سلمة. قال: «بنت أم سلمة؟» قلت: نعم. فقال: «لو أنها لم تكن ربيتي في حجري، ما حلت لي، إنها لابنة أخي من الرضاعة، أرضعتني وأبا سلمة ثويبة، فلا تعرضن علي بناتكن، ولا أخواتكن» أخرجه البخاري (5101) ومسلم (1449).

حليمة السعدية: عن عبد الله بن جعفر قال: " لما ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم قدمت حليمة بنت الحارث، في نسوة من بني سعد بن بكر يلتمسن الرضعاء بمكة

تقول حليمة: فخرجت في أوائل النسوة على أتان (انثى الحمار) لي ومعى زوجي الحارث بن عبد العزى.. قد أدمت أتانا (حدثت في ركبتها جروح دامية).. ومعى بالركب شارف (ناقة مسنة) والله ما تبض بقطرة لبن، في سنة شهباء (سنة مجدبة لا خضرة فيها ولا مطر) قد جاع الناس حتى خلس إليهم الجهد... ومعى ابن لي، والله ما ينام ليلنا (كثير البكاء من الجوع مزعجاً يؤرقها ويمنعها من النوم)، وما أجد في يدي شيئاً أعلله به، إلا أنا نرجو الغيث وكانت لنا غنم، فنحن نرجوها.

فلما قدمنا مكة فما بقي منا أحد إلا عرض عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فكرهته.. فقلنا: إنه يتيم، وإنما يكرم الظئر ويحسن إليها الوالد، فقلنا: ما عسى أن .. تصنع بنا أمه أو عمه أو جده

فكل صواحي أخذت رضيعاً، فلما لم أجد غيره، رجعت إليه وأخذته، والله ما ..أخذته إلا إني لم أجد غيره ..."

رواه الإمام البخاري في صحيحه.

قال عنه شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي: هذا حديث جيد الإسناد. انظر "صحيح السيرة" لإبراهيم العلي ص 52 وهامشها.



خامسا: وفاة أم النبي صلى الله عليه وسلم آمنة بنت وهب وعمره عليه السلام لم يتجاوز ست سنوات.

قال ابن إسحاق: "حدثني عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم: وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أمه آمنة بنت وهب، وجدّه عبد المطلب بن هاشم في كلاءة الله وحفظه، ينبته الله نباتا حسنا لما يريد به من كرامته، فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ست سنين؛ توفيت أمه آمنة بنت وهب" ابن هشام 126/1.

وقال: "إنّ أم رسول الله صلى الله عليه وسلم آمنة توفيت ورسول الله صلى الله عليه وسلم ابن ست سنين بالأبواء، بين مكة والمدينة، وكانت قد قدمت به على أخواله من بني عدي بن النجار، تزيّره إياهم، فماتت وهي راجعة به إلى مكة" سيرة ابن هشام 126/1. والحديث مرسل، انظر ذلك في "صحيح السيرة" لإبراهيم العلي ص 55 الإحالة 1.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: زار النبي قبر أمه فبكى وأبكى من حوله. فقال: "استأذنت ربي في أن أستغفر لها فلم يؤذن لي واستأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي، فزوروا القبور فإنها تذكّر الموت" أخرجه الإمام مسلم في صحيحه.

سادسا: كفالة جدّه عبد المطلب وحبّه له وسنّ النبي صلى الله عليه وسلم ست سنوات.

قال ابن إسحاق: وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم مع جدّه عبد المطلب بن هاشم، وكان يُوضَع لعبد المطلب فراش في ظلّ الكعبة، فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج إليه، لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالا له؛ قال: فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتي وهو غلام جعفر، حتى يجلس عليه، فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه، فيقول عبد المطلب، إذا رأى ذلك منهم: دعوا ابني، فوالله إنّ له شأنًا؛ ثمّ يجلسه معه على الفراش، ويمسح ظهره بيده، ويسره ما يراه يصنع.

سيرة ابن هشام 127/1.

سابعا: كفالة عمّه أبي طالب له وسنّ النبي صلى الله عليه وسلم ثماني سنوات.

قال ابن إسحاق: فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ثماني سنين هلك عبد المطلب بن هاشم. وذلك بعد الفيل بثمانى سنين.

سيرة ابن هشام 127/1.

وقال ابن إسحاق أيضا: "وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد عبد المطلب مع عمّه أبي طالب، وكان عبد المطلب - فيما يزعمون - يوصي به عمّه أبا طالب، وذلك لأنّ عبد الله أبا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأبا طالب أخوان لأب وأم، أمهما فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عبد بن عمران بن مختم"

سيرة ابن هشام 136/1.

ثامنا: امتهان الرسول صلى الله عليه وسلم رعي الغنم مقابل عوض مالي.

أخرج الإمام البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "ما بعث الله نبيا إلا رعى الغنم" فقال أصحابه: وأنت؛ قال: "نعم كنت أرهاها على قراريط لأهل مكّة".

تاسعا: عصمة الله لنبيه صلى الله عليه وسلم من أخلاق وعادات أهل الجاهلية.

قال ابن إسحاق: "فشبّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، والله تعالى يكلّؤه ويحفظه ويحوطه من أقدار الجاهلية، لما يريد به من كرامته ورسالته، حتى بلغ أن كان رجلا، وأفضل قومه مروءة، وأحسنهم خلقا، وأكرمهم حسبا، وأحسنهم جوارا، وأعظمهم حلما، وأصدقهم حديثا، وأعظمهم أمانة، وأبعدهم من الفحش والأخلاق التي تدنس الرجال، تنزها وتكرما، حتى ما اسمه في قومه إلا الأمين، لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة".

سيرة ابن هشام 138/1.

العاشر: سفر النبي صلى الله عليه وسلم مع عمّه أبي طالب للتجارة؛ ولقاؤه الراهب بحيرى وسنه تسع أو اثنتي عشرة سنة على اختلاف الروايات.

روى ابن إسحاق خروج النبي سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم مع عمّه للتجارة إلى مدينة بصرى في بلاد الشام، حيث التقى عليه السلام بالراهب بحيرى الذي تعرّف على النبي من خلال علامات النبوة، ونصح عمّه أبا طالب أن يرجع به وأن لا يذهب به إلى بصرى خشية أذى اليهود له.

سيرة ابن هشام 137/1-138.

وبالنسبة لأخبار لقاء النبي صلى الله عليه وسلم بالراهب بحيرى فمختلف في صحتها. انظر "صحيح السيرة النبوية" لإبراهيم العلي ص 59.

الحادي عشر: مشاركة النبي صلى الله عليه وسلم في حلف الفضول.

قال ابن إسحاق: "... تداعت قبائل من قريش إلى حلف، فاجتمعوا له في دار عبد الله بن جدعان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي، لشرفه وسنّه، فكان حلفهم عنده: بنو هاشم؛ وبنو المطلب؛ وأسد بن عبد العزى؛ وزهرة بن كلاب؛ وتيم بن مرة. فتعاقدوا وتعاهدوا على أن لا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلا قاموا معه، وكانوا على من ظلمه حتى تُردّ عليه مظلّمته، فَسَمَّتْ قريشُ ذلك الحلفَ حلف الفضول"

انظر "سيرة ابن هشام" 105/1.

وعن عبد الرحمان بن عوف عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "شهدتُ حلفَ المُطَيِّبِينَ مع عمومتي وأنا غلامٌ، فما أحبُّ أن لي حُمْرَ النِّعَمِ وأني أنكته"

رواه الإمام أحمد بن حنبل، وقال الهيثمي: رجال حديث عبد الرحمان بن عوف رجال الصحيح. انظر "صحيح السيرة النبوية" للعلي ص 59.

الثاني عشر: حرب الفجار وسنّ النبي صلى الله عليه وسلم 20 أو 41 أو 51 سنة.

قال ابن إسحاق: "هاجت حرب الفجار بين قريش؛ ومن معها من كنانة، وبين قيس عيلان" سيرة ابن هشام 139/1.

وقال أيضا: "وإنما سمّي يوم الفجار؛ بما استحلّ هذان الحَيَّان، كنانة وقيس عيلان، فيه من المحارم بينهم" "وشهدَ رسول الله صلى الله عليه وسلم بعضَ أيّامهم، أخرجهُ أعمامُهُ معهم، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كنتُ أُنبِلُ على أعمامي: أي أردُّ عليهم نبلَ عدُوِّهم إذا رمَوْهم بها." سيرة ابن هشام 140/1.

الثالث عشر: زواج الرسول صلى الله عليه من أمّ المؤمنين خديجة بنت خويلد رضي الله عنها؛ وعمره خمس وعشرون سنة.

تنتسب أمّ المؤمنين السيدة خديجة إلى قبيلة قريش فأبوها خويلد بن أسد بن عبد العزى، وأمها فاطمة بنت زائدة بن جندب، (انظر ابن عساكر "الأربعين في مناقب أمهات المؤمنين" الطبعة الأولى، دمشق: دار الفكر، صفحة 38-39. بتصرف.)

سمعت أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها وأرضاها بصدق الرسول -صلى الله عليه وسلم- وأمانته وكرمه وسُمُوّ ورفعة أخلاقه، فعرضت عليه أن يعمل معها في التجارة، ويتولّى أمر القوافل بما فيها من البضائع على أن تعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره من التجار. فخرج تاجراً بأموالها إلى الشام، ورافقه غلامٌ لها اسمه ميسرة، ورأت السيدة خديجة الأمانة في المال والبركة بتجارة الرسول فيه على غير صورة سابقة (سيرة ابن هشام 141/1)، كما أخبرها غلامها ميسرة بأخلاق الرسول وشمائله العظيمة، فأعجبت بتعامل الرسول وأخلاقه، وأخبرت بذلك صديقتها نفيسة، فحدثت نفيسة الرسول بخديجة، وعرضت عليه الزواج منها حسب رواية ابن اسحاق، (سيرة ابن هشام 141/1) وأما في رواية الإمام أحمد فالرسول صلى الله عليه وسلم هو الذي ذكر خديجة (رواه الإمام أحمد وقال الهيثمي: رواه أحمد والطبراني ورجال أحمد والطبراني رجال الصحيح. انظر "صحيح السيرة النبوية" للعلي ص60).

فتمّ العقد بين الرسول وخديجة بحضور بني هاشم ورؤساء مضر، وكان عُمر السيدة خديجة حينها أربعين سنة، وهي أول امرأة تزوجها الرسول عليه السلام، ولم يتزوج عليها أحداً قطّ إلى أن تُوفيت وقد تزوج النبي -صلى الله عليه وسلم- من السيدة خديجة قبل البعثة بخمسة عشر سنة، وكان عمره حينئذٍ خمسة وعشرون عاماً، وعمر السيدة خديجة -رضي الله عنها- أربعين عاماً. فولدت له عليه السلام جميع أولاده إلا إبراهيم؛ وهم: القاسم؛ وبه كان يُكنى عليه السلام، وعبد الله - الذي ولد بعد البعثة ولُقّب بالطاهر والطيب وقد توفي وهو صغير السن -؛ وزينب؛ ورقية؛ وأمّ كلثوم؛ وفاطمة الزهراء؛ عليهم السلام. (انظر سيرة ابن هشام 142/1).

اتّصفت أم المؤمنين خديجة بنت خويلد رضي الله عنها بالعديد من الأخلاق الفاضلة الكريمة كالعفة والطهارة والحكمة، وهي أول من دخل الإسلام من النساء، عندما صدّقت الرسول صلى الله عليه وسلم، ونصرتة على كفار قريش. ومن فضائلها أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم كان شديد الوفاء والحبّ لها - رضي الله عنها-، حتى قال فيها: {إني قد رزقتُ حبّها} (رواه مسلم في صحيحه، عن عائشة أم المؤمنين، رقم الحديث: 2435). كما أنّ جبريل عليه السلام جاء الرسول صلى الله عليه وسلم فأقرأه سلام الله عليها وسلامه، وبشّره بأنّ الله عز وجل جعل لها بيتاً في الجنّة من قصب لا صخب فيه ولا نصب. رواه الإمام البخاري في صحيحه.

ورُوي في مسند الإمام أحمد ومستدرک الحاكم ومشکل الآثار للطحاوي بإسناد صحيح عن عبد الله بن عباس أنه قال: (خطَّ رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الأرضِ خُطوطاً أربعةً قال: أتدرون ما هذا؟ قالوا: اللهُ ورسولُه أعلمُ. فقال رسولُ اللهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أفضلُ نساءِ أهلِ الجنَّةِ خديجةُ بنتُ خويلدٍ وفاطمةُ بنتُ مُحَمَّدٍ ومريمُ بنتُ عمرانَ وآسيةُ بنتُ مُزاحمٍ امرأةُ فرعونَ)

وقد تُوفِّيت -رضي الله عنها- في مكة في السنة العاشرة للبعثة في رمضان وعمرها خمس وستون سنة، وقيل خمساً وخمسين.

الرابع عشر: مشاركة الرسول صلى الله عليه وسلم في بناء الكعبة وعمره خمس وثلاثون سنة.

روى ابن إسحاق قائلاً: "فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسا وثلاثين سنة، اجتمعت قريش لبنيان الكعبة، وكانوا يهيمون بذلك ليسقفوها ويهايون هدمها، وإنما كانت رضماً فوق القامة، فأرادوا رفعها وتسقيفها، وذلك أن نَفراً سرقوا كنزاً للكعبة... فهدمتها قريش ووزعت مهام البناء على بطونها ورفعوا سقفها ولم يدخلوا في بنيانها من المال إلا من كَسِبَ طَيِّبٍ... " سيرة ابن هشام 144، 145/1.

ومن حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه الذي رواه الإمام البخاري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ينقلُ معهم الحجارة للكعبة...

الخامس عشر: تحكيم قبائل قريش النبي صلى الله عليه وسلم في وضع الحجر الأسود في مكانه وعمره خمس وثلاثون سنة.

الحجر الأسود هو حجر من الجنَّة، فقد روى الترمذي والنسائي عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال الرسول صلى الله عليه وسلم: "نزل الحجر الأسود من الجنَّة". وقد نزل به الملك جبريل عليه السلام ليصبح أشرف أجزاء الكعبة المشرفة التي جعلها الله تعالى أول بيت في الأرض وُضِعَ لعبادته؛ يقول جل شأنه: {إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ} آل عمران/96. وفي رواية للإمام الترمذي يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: {نزل الحجر الأسود من الجنَّة أشدَّ بياضاً من اللبَنِ، فسودته خطايا بني آدم}

أجمع أصحاب السيرة أن قريشا كانوا يقدمون النبي صلى الله عليه وسلم ويتحاكمون إليه في بعض خلافاتهم قبل البعثة؛ لأنه كان صادقاً أميناً لا يداري

أحدا. وهذا ما جعلهم يرضون حكمه عند إعادتهم بناء الكعبة المشرفة. يقول الخصري: «أرادوا وضع الحجر الأسود موضعه، فاختلف أشرافهم فيمن يضعه، وتنافسوا في ذلك حتى كادت تشبّ بينهم نار الحرب، ودام بينهم هذا الخصام أربع ليالٍ، وكان أسنّ رجل في قريش إذ ذاك أبو أمية بن المغيرة المخزومي عمّ خالد بن الوليد، فقال لهم: يا قوم لا تختلفوا وحكموا بينكم من ترضون بحكمه. فقالوا: نكلُ الأمر لأوّل داخل. فكان هذا الداخل هو الأمين المأمون عليه الصلاة والسلام، فاطمأن الجميع له لِمَا يعهدونه فيه من الأمانة وصدق الحديث، وقالوا: هذا الأمين رضينا، هذا محمد. لأنهم كانوا يتحاكمون إليه إذ كان لا يُداري ولا يُماري. فلما أخبروه الخبر بسط رداءه وقال: لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب. ثم وضع فيه الحجر وأمرهم برفعه حتى انتهوا إلى موضعه فأخذه ووضعوه فيه. وهكذا انتهت هذه المشكلة التي كثيراً ما يكون أمثالها سبباً في انتشار حروب هائلة بين العرب، لولا أن مَنَّ الله عليهم بعاقل مثل أبي أمية يرشدهم إلى الخير، وحكيم مثل الرسول صلى الله عليه وسلم يقضي بينهم بما يُرضي جميعهم». (نور اليقين ص: 15). وهكذا استطاع النبي صلى الله عليه وسلم بحكمته البالغة إرضاء بطون قريش ودرء مفسد الحروب والاقتتال.

السادس عشر: تسليم الحجر الأسود على النبي صلى الله عليه وسلم قبل البعثة.

روى الإمام مسلم عن جابر بن سمرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: {إني لأعرف حجراً بمكة كان يُسلمُ عليّ قبل أن أُبعثَ إني لأعرفه الآن}.

السابع عشر: تحنّث وتعبد النبي صلى الله عليه وسلم في غار حراء قبل البعثة.

روى ابن إسحاق عن عبيد بن عمير بن قتادة الليثي: "... كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُجاور في حراء من كلّ سنة شهراً، وكان ذلك ممّا تحنّث به قريش في الجاهلية." والتحنّث التبرر. "سيرة ابن هشام 1/ 171. إسناد الخبر صحيح انظر تحقيق الروايات 1/ 171 وهامشها.

ما يمكن استنباطه من المعاني والعبر والدروس من أحداث السيرة النبوية قبل البعثة:

أولاً: الحكمة الإلهية من اختيار العرب وجزيرتهم مهدياً للإسلام ودعوته.

قبل الحديث عن الحكمة من اختيار العرب وجزيرتهم مهدياً لرسالة الإسلام، من المناسب أن نلقي نظرة سريعة نتعرف من خلالها على واقع أمم الأرض حينئذ،

وما كان من أمرهم وحالهم، وهل كانت تلك الأمم مؤهلة لحمل رسالة عالمية تخرج البشرية من طريق الغي والضلال الذي تعيش فيه إلى طريق الحق والرشاد... ثم لنعلم على ضوء ذلك أيضاً المؤهلات والمقومات التي جعلت من العرب وجزيرتهم قادرة وصالحة لحمل رسالة الإسلام.

كان يحكم العالم دولتان اثنتان: الفرس والروم، ومن ورائهما اليونان والهند.

ولم يكن الفرس على دين صحيح ولا طريق قويم، بل كانوا مجوساً يعبدون النيران، ويأخذون بمبادئ مذهبي: الزرادشتية والمزدكية، فكلاهما انحرفتا عن طريق الفطرة والرشاد، واتبعتا فلسفة مادية بحتة لا تقر بفطرة ولا تعترف بدين، فمن أشنع ما تبنته الزرادشتية مثلاً تفضيل زواج الرجل بأمه أو ابنته أو أخته، والمزدكية من فلسفتها حلّ النساء، وإباحة الأموال، وجعل الناس شركاء فيها، كاشتراكهم في الماء والهواء والنار والكلاً.

أما الروم فلم يكن أمرهم أفضل حالاً، فعلى الرغم من كونهم على دين عيسى عليه السلام بيد أنهم انحرفوا عن عقيدته الصحيحة، وحرفوا وبدلوا ما جاء به من الحق، فكانت دولتهم غارقة في الانحلال؛ حيث حياة التبذل والانحطاط، والظلم الاقتصادي جراء الضرائب، إضافة إلى الروح الاستعمارية، وخلافهم مع نصارى الشام ومصر، واعتمادهم على قوتهم العسكرية، وتلاعبهم بالمسيحية وفق مطامعهم وأهوائهم.

ولما كان الأمر كذلك لم تكن القوتان الكبيرتان في العالم آنذاك قادرتين على توجيه البشرية نحو دين صحيح، ولم تكونا مؤهلتين لحمل رسالة عالمية تخرج الناس من ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة، ومن ظلم العباد إلى عدل الواحد الديان.

أما اليونان وشعوب أوربا فقد كانت تعيش حياة بربرية، تعبد الأوثان، وتقّس قوى الطبيعة، فضلاً عن كونها غارقة في الخرافات والأساطير الكلامية التي لا تفيد في دين ولا دنيا.

أما بقية الشعوب في الهند والصين واليابان والتبت، فكانت تدين بالبوذية، وهي ديانة وثنية ترمز لآلهتها بالأصنام الكثيرة وتقيم لها المعابد، وتؤمن بتناسخ الأرواح.

وإلى جانب تلك الأمم كان هناك اليهود، وكانوا مشتتين ما بين بلاد الشام والعراق والحجاز، وقد حرفوا دين موسى عليه السلام، فجعلوا الله - سبحانه وتعالى - إلهاً

خاصاً باليهود، وافتروا الحكايات الكاذبة على أنبيائهم مما شوّه سمعتهم، وأحلّوا التعامل مع غيرهم بالربا والغش، وحرّموه بينهم.

ونتج عن ذلك الانحلال والاضطراب والضلال فساد وشقاء، وحضارة رعناء قائمة على أساس القيم المادية، بعيدة عن القيم الروحية المستمدة من الوحي الإلهي.

أما جزيرة العرب فقد كانت في عزلة عن تلك الصراعات والضلالات الحضارية والانحرافات، وذلك بسبب بعدها عن المدنية وحياة الترف، مما قلل وسائل الانحلال الخلقي والطغيان العسكري والفلسفي في أرجائها، فهي - وعلى ما كانت عليه من انحراف - كانت أقرب إلى الفطرة الإنسانية، وأدعى لقبول الدين الحق، إضافة إلى ما كان يتحلّى به أهلها من نزعات حميدة كالنجدة والكرم، والعفة والإباء، والأمانة والوفاء.

هذا إلى جانب موقع جزيرة العرب المميز؛ إذ كان موقعها الجغرافي وسطاً بين تلك الأمم الغارقة التائهة، فهذا الواقع والموقع جعلها مؤهلة لنشر الخير وحمله إلى جميع الشعوب بسهولة ويسر.

وبهذا تجلت الحكمة الإلهية في اختيار العرب وجزيرتهم مهدياً للإسلام، إذ كانت بيئة أمية لم تتعقد مناهجها الفكرية بشيء من الفلسفات المنحرفة، بل كانت أقرب لقبول الحق، والإذعان له، إضافة إلى أن اختيار جزيرة العرب مهدياً للإسلام فيه دفع لما قد يتبادر إلى الأذهان من أنّ الدعوة نتيجة تجارب حضارية، أو أفكار فلسفية.

ناهيك عن وجود البيت العتيق، الذي جعله الله أول بيت للعبادة، ومثابة للناس وأماناً، واللغة العربية وما تمتاز به، وهي لغة أهل الجزيرة.

ولا بد من الإشارة إلى أن الله اختار العرب وفضلهم لتكون الرسالة فيهم ابتداءً، وهذا تكليف أكثر مما هو تشریف؛ حيث إن من نزل عليه الوحي ابتداءً مكلف بنشره وأخذه بقوة، وليس هذا أيضاً تفرقة بين العرب وغيرهم بل الكل لآدم وآدم من تراب، وأكرم الناس أتقاهم لله، ولهذا كان في الإسلام بلال الحبشي، وسلمان الفارسي وصهيب الرومي...

لذلك كله وغيره كان العرب أنسب قوم يكون بينهم النبي الخاتم عليه الصلاة والسلام، وكانت جزيرتهم أفضل مكان لتلقي آخر الرسالات السماوية، فمن



الواجب الإقبال على الله سبحانه بالحمد والشكر لما أكرم به العرب من بعثة خاتم الرسل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بهذا الدين العظيم، وشرف جزيرتهم، فجعلها مهبط الوحي المبين.

ليس من العيب أن اختيار الله جلت قدرته العرب لأن يكونوا أمة الدعوة الخاتمة، وليس صدفة أن تكون جزيرة العرب منطلقاً لدعوة التوحيد والوحدة، وأن تكون بطحاء مكة ووديانها موقعاً أبدياً لأول بيت وضع للناس ليكون هذا المكان صلة بين الإنسان في مشارق الأرض ومغاربها وبين ربه.

فاختيار المكان والأمة والرسول كان معجزة، وإلا فكيف تكون جبال مكة وبتطاحها وشعابها القاحلة منطلقاً لدعوة الإيمان ودعوة الإسلام، وهي القابعة في قلب الصحراء، والبعيدة عن مجريات الأحداث وتفاعلاتها وتحركاتها وصنعها، وحواضر فارس والروم، تصنع الحدث، وتتحكم بمصائر الأمم والشعوب وتحرك ملوكه وأمراءه وحكامه آن ذاك.

فاختيار العرب دون الأمم وهم المتفرقون التائهون في الصحراء لتحمل مسؤولية صنع التاريخ كان معجزة، واختيار سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وهو اليتيم والفقير والامي دون سائر أبناء الكبار والوجهاء والأغنياء لتحمل رسالة الدعوة كان معجزة.

انها معجزة الإيمان والإسلام انطلقت من جزيرة قاحلة قاسية تلتهمها رمال الصحراء، لتعلم وتُعمم الخير والرحمة والحضارة والإنسانية للمجتمع البشري كافة، وقد كانت الهجرة منطلقاً لكل ذلك.

مع كل عام يتجدد تاريخ الهجرة النبوية، والوطن العربي والعالم الإسلامي يعيش في صحرائه وجفافه وفرقته، وتأكله فمتى يستفيق هذا الوطن وسيدنا محمد عليه الصلاة والسلام عندما هاجر من مكة إلى المدينة المنورة صنع تاريخ أمة خرجت من الضياع والفرقة لتصنع إيماناً وتجندت لهداية الكون. وتؤكد مصادر التاريخ أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ارتأى في العام السادس عشر من الهجرة وضع تاريخ إسلامي بعدما اتسعت دولة الإسلام وتشعبت مدنها وقراها وتشاور مع أصحابه ومنهم الإمام علي رضي الله عنه فكان اقتراح الإمام علي بأن تكون هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام بداية للتاريخ الهجري.

ومن أجل ذلك فعندما يحتفل المسلمون كل عام بنهاية عام وبداية عام هجري فإنما يحتفلون ويتذكرون هجرة نبوية شريفة انطلق منها سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وصحبه من مكة إلى المدينة، فكانت البداية لتصحيح مسيرة الإنسان من الانحراف العَقْدِيّ والسلوكي المادي الذي غرق فيه، إلى النور والهداية والأخوة الإنسانية والرحمة لبني البشر، وذلك مِصداً لقوله تعالى: {وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين} الأنبياء/106، و لقوله عليه الصلاة والسلام: "لا فضل لعربيّ على عجميّ، ولا لعجميّ على عربيّ، ولا لأبيضَ على أسودَ، ولا لأسودَ على أبيضَ - : إلا بالتَّقْوَى، النَّاسُ من آدمُ، وآدمُ من ترابٍ". حديث صحيح روي بألفاظ متعددة وقد أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء 100/3، والبيهقي في شعب الإيمان برقم: 5137، وغيرهما.

فالهجرة النبوية التي تتجدد كل عام هي هجرة للخصومة والشقاق والتفرقة والظلم الذي اتصف به الإنسان على مدى التاريخ إلى رحاب دين التوحيد والرحمة التي اتصف بها المسلمون بعد ذلك وفي مقدمتهم العرب. هذه الهجرة المحمدية بما تحمل من معانٍ إيمانية غيرت الفكر والسلوك للإنسان العربي فجعلت من عمر بن الخطاب الذي كاد أن يئد ابنته وهي حية في التراب أن يرضخ أمام جموع المؤمنين وهو أميرهم لقول امرأةٍ صححت له مقولته فقال "أصابت امرأة وأخطأ عمر".

والهجرة النبوية هذه هي التي جعلت أمير المؤمنين عمر يبكي حتى قيل له: وما يبكيك يا أمير المؤمنين وأنت الذي حكمت فعدلت فأمنت، قال: "والله لو أن شاةً تعثرت في العراق لخفت أن يسألني الله عنها يوم القيامة".

في ذكرى الهجرة النبوية نتذكر هذه المفاهيم الإنسانية التي حملها الإسلام وآمن بها أتباعه حكماً ومحكومين فكانت مكان إعجاب واحترام المؤرخين والمفكرين في المجتمع الإنساني إعجاباً وتقديراً لهذا الدين ورسالته السامية من هنا كان قول المؤرخ توينبي: (إن عقيدة التوحيد التي جاء بها الإسلام هي من أروع الأمثلة في فكرة توحيد العالم وإن بقاء الإسلام أمل العالم كله، وشعيرة الحج تعد عاملاً قوياً

في تطبيق مبدأ التوحيد في العالم، وما يربط المسلمين بعضهم ببعض دون تفرقة لونية أو عنصرية هي رمز للإخاء الإنساني.

ونحن نحتفل كل عام ببداية العام الهجري بعد مرور ما يزيد على الخمسة عشر قرناً، نشعر بأننا نعيش في غربلة عن الإسلام وعن الهجرة النبوية بمعانيها العميقة ونتائجها وأسبابها وما ترمز إليه، فما أشبه هذه الأيام المتشحة بالسواد والفرقة والظلم والطغيان والاستعباد والاحتلال لبلاد العرب والإسلام، بتلك الأيام التي وجد الإنسان فيها نفسه في الجزيرة وما حولها وفي حواضر العالم آنذاك، قبل الهجرة النبوية فريسة لجيروت القوى العظمى وعبودية المادة والعلومة المتصهينة، فلتجدد الهجرة النبوية في قلوب المؤمنين قبل سلوكهم ليصنعوا الوحدة والنصر والتمكين الإلهي. إن عصر النبوة والمعجزات قد انتهى لكن الشيء الذي لم ولن ينتهي هي رسالة الإسلام ومعاني الهجرة النبوية التي تتجدد على مر العصور، فهل تتجدد معنى وسلوكاً ومصلحة لنكون خير أمة أخرجت للناس؟

فالهجرة النبوية ليست احتفالاً أو مقالة أو خطاباً نُؤديه سنوياً في الحواضر والعواصم العربية والإسلامية وإنما الهجرة سلوك ورسالة ونهج لتصحيح مسيرة الحياة بدأها سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ومعه أصحابه، وسار على نهجها الأتباع والمؤمنون فكانوا شامة مشرقة في وجه المجتمع البشري.

**ثانياً: دروسٌ وعبرٌ مستفادة من حادثة الفيل التي أرخ بها ميلاد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.**

1 - في الواقعة بيان شرف الكعبة أوّل بيتٍ وُضع للناس لعبادة الله عز وجل، وكيف أنّ مشركي العرب كانوا يعظّمونه، ويفدّسونه، ولا يقدّمون عليه شيئاً. وتعود هذه المنزلة إلى ما بقي من الحنيفية السمحة دين سيدنا إبراهيم، وإسماعيل، عليهما الصلّاة والسّلام.

2 - حسد النصارى، وحقدهم على مكّة، وعلى العرب الذين يعظّمون هذا البيت، ولذلك أراد أبرهة أن يصرف العرب عن تعظيم بيت الله ببناء كنيسة القليس وجلب الحجاج إليها، وعلى الرّغم من استعماله أساليب التّرهيب، والتّرهيب إلا أنّ العرب امتنعوا، ووصل الأمر إلى مداه بأن أحدث في كنيسة القليس أحد الأعراب، قال الفخر الرّازي: "اعلم أنّ الكيد هو إرادة مضرّة بالغير على الخفية. إن قيل: لم سمّاه {ألم يجعل كيدهم في تضليل}، وأمره كان ظاهراً؟ فإنّه كان يُصرّح أن يهدم البيت. (قلنا): نعم؛ لكن الذي كان في قلبه شراً ممّا أظهر؛ لأنّه

كان يضمّر الحسد للعرب، وكان يريد صرف الشرف الحاصل لهم بسبب الكعبة عنهم، وعن بلدهم إلى نفسه، وإلى بلده" (انظر: مفاتيح الغيب 94/32)

3 - التّضحية في سبيل المقدّسات:

قام ملكٌ من ملوك حِميرَ في وجه جيش أبرهة، ووقع الملك أسيراً، وقام النُّقيلُ بن حبيب الخثعميُّ ومن اجتمع معه من قبائل اليمن، فقاتلوا أبرهة، إلا أنّهم انهزموا أمام الجيش العرَمَرَمَ، وبذلوا دماءهم دفاعاً عن مقدّساتهم.

إنّ الدِّفاع عن المقدّسات والتّضحية في سبيلها، شيءٌ مغروسٌ في فطرة الإنسان.

4 - حَوْنَةُ الأُمَّةِ مخدولون:

فهؤلاء العملاء الذين تعاونوا مع أبرهة، وصاروا عيوناً له، وجواسيس، وأرشدوه إلى بيت الله العتيق؛ ليهدمه لعنوا في الدُّنيا والآخرة، لعنهم النَّاسُ، ولعنهم الله - سبحانه وتعالى - وأصبح قبر أبي رغال رمزاً للخيانة والعمالة، وصار ذلك الرّجل مبعوضاً في قلوب النَّاسِ، وكلّماً مرَّ أحدٌ على قبره؛ رجمه.

5 - حقيقة المعركة بين الله وأعدائه:

في قول عبد المطلب زعيم مَكَّة: «سنخلى بينه وبين البيت؛ فإن خلى الله بينه وبينه؛ فو الله ما لنا به قوّة» وهذا تقريرٌ دقيقٌ لحقيقة المعركة بين الله وأعدائه، فمهما كانت قوّة العدوِّ وحشوده؛ فإنّها لا تستطيع الوقوف لحظةً واحدةً أمام قدرة الله وبطشه، ونقمته؛ فهو سبحانه واهب الحياة، وسألها في أيّ وقتٍ شاء.

قال القاسميُّ - رحمه الله -: قال القاشانيُّ - رحمه الله - قصّة أصحاب الفيل مشهورة، وواقعهم قريبة من عهد الرّسول صلى الله عليه وسلم، وهي إحدى آيات قدرة الله، وأثرٌ من سخطه على من اجترأ عليه بهتك حرمة (انظر محاسن التّفسير، للقاسمي (262/17)).

6 - تعظيم النَّاسِ للبيت، وأهله:

ازداد تعظيم العرب لبيت الله الحرام، الذي تكفّل بحفظه، وحمايته من عبث المفسدين، وكيد الكائدين (انظر محاسن التّفسير، للقاسمي (262/17)). وأعظمت العرب قريشاً، وقالوا: هم أهل الله، قاتل الله عنهم، وكفاهم العدو، وكان ذلك آيةً من الله تعالى، ومقدّمةً لبعثة نبيّ يبعث من مَكَّة، ويطهر الكعبة من الأوثان، ويعيد لها ما كان لها من رفعة، وشأن (انظر: السيرة النبويّة، للنُدوي، ص 92).

7 - قصّة الفيل من دلائل النُّبوة:

قال بعض العلماء: إنّ حادثة الفيل من شواهد النُّبوة، ودلالاتها، ومن هؤلاء: الماورديُّ - رحمه الله - حيث يقول: آيات الملك باهرة، وشواهد النُّبوة ظاهرة، تشهد مبادئها بالعواقب، فلا يلتبس فيها كذبٌ بصدق، ولا منتحلٌ بحق، وبحسب قوّتها، وانتشارها تكون بشائرها، وإنذارها، ولما دنا مولد رسول الله صلى الله

عليه وسلم تعاطرت آيات نبوته، وظهرت آيات بركته، فكان من أعظمها شأنًا، وأشهرها عياناً، وبياناً أصحاب الفيل... إلى أن قال: وآية الرسول صلى الله عليه وسلم في قصة الفيل: أنه كان في زمانه حملاً في بطن أمه بمكة؛ لأنه ولد بعد خمسين يوماً من الفيل، وبعد موت أبيه، في يوم الإثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول، فكانت آية في ذلك من وجهين:

أحدهما: أنهم لو ظفروا؛ لسبوا، واسترقوا، فأهلكهم الله - تعالى - لصيانة رسوله صلى الله عليه وسلم أن يجري عليه السبب حملاً، ووليداً.

والثاني: أنه لم يكن لقريش من التآله ما يستحقون به رفع أصحاب الفيل عنهم، وما هم أهل كتاب؛ لأنهم كانوا بين عابد صنم، أو متدين وثن، أو قائل بالزندقة، أو مانع من الرجعة، ولكن لما أراد الله تعالى من ظهور الإسلام، تأسيساً للنبوة، وتعظيماً للكعبة. ولما انتشر في العرب ما صنع الله تعالى في جيش الفيل، تهيأوا الحرم، وأعظموه، وزادت حرمة في النفوس، ودانت لقريش بالطاعة، وقالوا: أهل الله، قاتل عنهم، وكفاهم كيد عدوهم، فزادوهم تشريفاً، وتعظيماً، وقامت قريش لهم بالوفادة، والسدانة، والسقاية (والوفادة مالٌ تخرجه قريش في كل عام من أموالهم، يصنعون به طعاماً للناس أيام منى)، فصاروا أئمة ديانين، وقادة متبوعين، وصار أصحاب الفيل مثلاً في الغابرين (انظر: أعلام النبوة، للماوردي، ص 185 - 189).

وقال ابن تيمية - رحمه الله -: «وكان ذلك عام مولد النبي صلى الله عليه وسلم، وكان جيران البيت مشركين يعبدون الأوثان، ودين النصارى خيرٌ منهم، فعلم بذلك أن هذه الآية لم تكن لأجل جيران البيت حينئذ، بل كانت لأجل البيت، أو لأجل النبي صلى الله عليه وسلم؛ الذي ولد في ذلك العام عند البيت، أو لمجموعهما، وأي ذلك كان؛ فهو من دلائل نبوته» (انظر: الجواب الصحيح (122/4)).

وقال ابن كثير - رحمه الله - عندما تحدت عن حادثة الفيل: «كان هذا من باب الإرهاص، والتوطئة لمبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإنه في ذلك العام ولد - على أشهر الأقوال - ولسان حال القدرة يقول: لم ينصركم يا معشر قريش! على الحبشة لخيرتكم عليهم، ولكن صيانةً للبيت العتيق؛ الذي سنشرفه، ونوقره ببعثة النبي الأمي محمد - صلوات الله، وسلامه عليه - خاتم الأنبياء» (انظر: تفسير ابن كثير (548/4، 549)).

8 - حفظ الله للبيت العتيق:

وهي: أن الله لم يقدر لأهل الكتاب (أبرهة وجنوده)، أن يدمروا البيت الحرام، أو يسيطروا على الأرض المقدسة، حتى والشرك يُدنسه، والمشركون هم سدنته؛ ليبقى هذا البيت عتيقاً من سلطان المتسلطين، مصوناً من كيد الكائدين، وليحفظ

لهذه الأرض حرّيتها، حتّى تثبت فيها العقيدة الجديدة حرّةً طليقةً، لا يهيمن عليها سلطانٌ، ولا يطغى فيها طاغيةٌ، ولا يهيمن على هذا الدّين الذي جاء ليهيمن على الأديان، وعلى العباد، ويقود البشريّة، ولا يقاد، وكان هذا من تدبير الله لبيته، ولدينه، قبل أن يعلم أحدٌ: أنّ نبيّ هذا الدّين قد ولد في هذا العام (انظر: السّيرة النّبويّة، لأبي فارس، ص 113).

ونحن نستبشر بإيحاء هذه الدّلالة اليوم، ونطمئنّ إزاء ما نعلمه من أطماع فاجرةٍ مأكرةٍ، ترف حول الأماكن المقدّسة من قبل الصّليبيّة العالميّة، والصّهيوينيّة العالميّة، ولا تني، أو تهدأ في التمهيد الخفيّ اللئيم لهذه الأطماع الفاجرة المأكرة، فالله الذي حمى بيته من أهل الكتاب، وسدنته مشركون، سيحفظه - إن شاء الله - ويحفظ مدينة رسوله صلى الله عليه وسلم من كيد الكائدين، ومكر الماكرين (في ظلال القرآن للسيد قطب 3980/6).

9 - جَعَلَ الحادثة تاريخاً للعرب:

استعظم العرب ما حدث لأصحاب الفيل وكيف نزل وحل بهم عقاب الله تعالى، فأرخوا به، وقالوا: وقع هذا عام الفيل، ووُلد فلانُ عام الفيل، ووقع هذا بعد عام الفيل بكذا من السنين، وعام الفيل صادف عام 570م (انظر: السّيرة النّبويّة، للندويّ، ص 93).

**ثالثاً: العبر والحكم المستفادة من شرف نسب النبي صلى الله عليه وسلم.**

لقد كان - وما زال - شرف النّسب له المكانة في النّفوس؛ لما فطر الله تعالى عباده عليه من حب النسب الشريف الطاهر، فصاحب النّسب الرّفيع لا تُنكرُ عليه الصّدارة، نبوةٌ كانت، أو مُلكاً، وينكر ذلك على وضع النّسب، فيأنف الكثير من الانضواء تحت لوائه، ولَمّا كان سيدنا محمّد صلى الله عليه وسلم يُعدُّ للنّبوة، هيّاً الله تعالى له شرف النّسب؛ ليكون مساعداً له على التفاف النّاس حوله وتأليف قلوبهم.

إنّ معدن النّبويّ صلى الله عليه وسلم طيّبٌ، ونفيسٌ، فهو من نسل إسماعيل الذّبيح، وإبراهيم خليل الله، واستجابةً لدعوة إبراهيم عليه السلام، وبشارة أخيه عيسى عليه السلام، كما حدّث هو عن نفسه، فقال: «أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشارة أخي عيسى» أحمد (127/4) والحاكم (600/2) ومجمع الزوائد (222/8). وطيب المعدن، والنّسب الرّفيع يرفع صاحبه عن سفاف الأمور، ويجعله يهتمّ بعاليها، وفضائلها. والرّسل، والدّعاة يحرصون على تزكية أنسابهم، وطهر أصلابهم، ويعرفون عند النّاس بذلك، فيحمدونهم، ويتقون بهم (انظر: السّيرة النّبويّة، لأبي فارس، ص 102).

وممّا تبين يتّضح لنا من نسبه الشّريف، دلالة واضحة على أنّ الله - سبحانه وتعالى - ميّز العرب على سائر النّاس، وفضّل قريشاً على سائر القبائل الأخرى،

ومقتضى محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم محبة القوم الذين ظهر فيهم، والقبيلة التي ولد فيها، لا من حيث الأفراد والجنس؛ بل من حيث الحقيقة المجردة، ذلك؛ لأن الحقيقة العربية القرشية قد شرف كلُّ منها - ولا ريب - بانتساب رسول الله صلى الله عليه وسلم إليها، ولا ينافي ذلك ما يلحق من سوء، بكلِّ مَنْ قد انحرف من العرب، أو القرشيين عن صراط الله - عزَّ وجلَّ - وانحطَّ عن مستوى الكرامة الإسلامية التي اختارها الله لعباده؛ لأنَّ هذا الانحراف، أو الانحطاط من شأنه أن يُودي بما كان من نسبة بينه وبين الرسول صلى الله عليه وسلم، ويلغيها من الاعتبار (انظر: فقه السيرة للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، ص 45).

**رابعاً: زواج عبد الله بن عبد المطلب من أمنة بنت وهب، وروياً أمنة أم النبي صلى الله عليه وسلم وما فيها من الحكم.**

كان عبد الله بن عبد المطلب من أحبِّ ولد أبيه إليه، ولمَّا نجا من الذبح، وفداه عبد المطلب بمئة من الإبل، زوجه من أشرف نساء مكة نسباً، وهي أمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب

ولم يلبث أبوه أن توفي بعد أن حملت به صلى الله عليه وسلم أمه أمنة، ودُفن بالمدينة عند أخواله بني «عدي بن النجار»، فإنه كان قد ذهب بتجارة إلى الشام، فأدركته منيته بالمدينة وهو راجع، وترك هذه النسمة المباركة، وكانَّ القدر يقول له: قد انتهت مهمتك في الحياة، وهذا الجنين الطاهر يتولَّى الله - عزَّ وجلَّ - بحكمته ورحمته تربيته، وتأديبه، وإعداده؛ لإخراج البشرية من الظلمات إلى النور.

ولم يكن زواج عبد الله من أمنة هو بداية أمر النبي صلى الله عليه وسلم. قيل للنبي صلى الله عليه وسلم: ما أول بدء أمرك؟ فقال صلى الله عليه وسلم: «أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، ورأت أمي أنه خرج منها نورٌ أضاءت منه قصورُ الشام» أحمد (262/5) والمعجم الكبير (7729) ومجمع الزوائد (221/8).

ودعوة إبراهيم عليه السلام هي ما ورد به البيان القرآني في قوله تعالى: {رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} البقرة: 129.

وبشرى عيسى عليه السلام هي ما أشار إليه قوله - عزَّ وجلَّ - حاكياً عن المسيح عليه السلام: {وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ} الصف: 6.

وقوله صلى الله عليه وسلم: «ورأت أمي كأنه خرج منها نورٌ أضاءت منه قصورُ الشام». قال ابن رجب معلقاً على الحديث: "وخروجُ هذا النور عند وضعه إشارةً إلى ما يجيء به من النور؛ الذي اهتدى به أهل الأرض، وزالت به ظلمة الشرك منها، كما قال الله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ { المائدة: 15 و 16. »

وقال ابن كثير: «وتخصيص الشام بظهور نوره، إشارة إلى استقرار دينه، وثبوته ببلاد الشام، ولهذا تكون الشام في آخر الزمان معقلاً للإسلام، وأهله، وبها ينزل عيسى بن مريم عليه السلام بدمشق بالمنارة الشرقية البيضاء منها، ولهذا جاء في الصحيحين: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم، حتى يأتي أمر الله وهم كذلك». وفي صحيح البخاري: «وهم بالشام» البخاري (3641) ومسلم (1923/م).

**خامساً: ميلاد الرسول صلى الله عليه وسلم ودلائل النبوة.**  
ولد الحبيب المصطفى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم يوم الإثنين بلا خلاف، وذهب الأكثرون إلى أنه ولد لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول (انظر: صحيح السيرة النبوية، لإبراهيم العلي، ص 47).

والمجمع عليه: أنه عليه الصلاة والسلام ولد عام الفيل (انظر: السيرة النبوية، لابن كثير 203/1)، وكانت ولادته في دار أبي طالب، بشعب بني هاشم. لقد رافق مولده صلى الله عليه وسلم بعض الوقائع والأحداث التي تفيد نبوته عليه السلام منها ما أكدت صحته بالروايات الصحيحة؛ ومنها ما رده علماء الحديث. من الروايات الصحيحة أنه عليه السلام ولد في عام الفيل، كما تقدم ذكره. وفيه دليل على دفاع الله تعالى عن البيت الحرام الذي أراد سبحانه أن يكون أول بيت يوضع في الأرض لعبادته، فهذه الواقعة آية من آياته وحادثة عظيمة تدل على دُنُوِّ قدوم مبعثه وما يكون له عليه السلام من شأن عظيم، وفضل عميم سيعم الأرض طولاً وعرضاً، ثم النور الذي انبعث من أمه آمنة بنت وهب عند الوضع يؤكد هذه الحقائق الربانية.

**سادساً: الحكمة الإلهية من اصطفاء الله عز وجل لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لحمل أمانة تبليغ رسالة ربه؛ وحيازته للشرف كله.**

بركة النبي صلى الله عليه وسلم على السيدة حليلة وبادية بني سعد دليل رعاية الله عز وجل له:

فقد ظهرت هذه البركة على حليلة السعدية في كل شيء، ظهرت في إدرار ثديها، وغزارة حليبها، وقد كان لا يكفي حتى ولدها، وظهرت بركته في سكون



ولدها، بعدما كان كثير البكاء، مزعجاً لأمّه، يؤرّقها، ويمنعها من النَّوم والراحة، وإذا هو شبعان ساكنٌ جعل أمّه تنام، وتستريح. وقد عمت بركته عليه السلام جميع بادية بني سعد بنزول المطر بعد انقطاعه؛ فارتوت شياهم العجافوات، التي كانت من قبل لا تدرُ شيئاً، وإذا بها تفيض من اللبن الكثير الذي لم يُعهد. فبركات النبي صلى الله عليه وسلم من أبرز مظاهر إكرام الله تعالى له، فلم تتوقف هذه البركات على بيت حليلة السّعدية التي تشرّفت بإرضاعه، وليس في ذلك من غرابة ولا عجب، فخلف ذلك حكمة أن يُحبَّ أهل هذا البيت هذا الطفل، ويحنوا عليه، ويحسنوا معاملته، ورعايته، وحضانتها، وهكذا كان، فقد كانوا أحرص عليه، وأرحم به من أولادهم من الصلب.

من الحكم المستفادة أن خيار الله للعبد أبرك وأفضل:

لقد اختار الله تعالى لحليمة هذا الطفل اليتيم، وأخذته على مضضٍ؛ لأنها لم تجد غيره وفق ما تذكره الروايات، فكان الخير كلّ الخير فيما اختاره الله عز وجل، وبانت نتائج هذا الاختيار منذ دخول النبي عليه السلام بادية بني سعد بله مذ احتضنته حليلة السعدية، وهذا درسٌ عظيم لكلّ مسلم بأن يطمئن قلبه إلى قدر الله، واختياره، والرّضا به، ولا يندم على ما مضى، وما لم يقدره الله تعالى.

أثر البادية في صحّة الأبدان، وصفاء النفوس، وذكاء العقول:

قال الشيخ محمّد الغزالي - رحمه الله -: "وتنشئة الأولاد في البادية؛ ليمرحوا في كنف الطبيعة، ويستمتعوا بجوّها الطّلق، وشعاعها المرسل أدنى إلى تزكية الفطرة، وإنماء الأعضاء، والمشاعر، وإطلاق الأفكار، والعواطف. إنّها لتعاسة أن يعيش أولادنا في شقق ضيقة، من بيوت متلاصقة، كأنّها علبٌ أغلقت على مَنْ فيها، وحرمتهم لذة التّنفس العميق، والهواء المنعش. ولا شكّ: أنّ اضطراب الأعصاب الذي رافق الحضارة الحديثة، يعود - فيما يعود - إلى البعد عن الطبيعة، والإغراق في التصنّع. ونحن نقدر لأهل مكّة اتّجاههم إلى البادية؛ لتكون عرصات الفساح مدارج طفولتهم. وكثير من علماء التّربية يودّ لو تكون الطبيعة هي المعهد الأوّل للطفل، حتّى تتسق مداركه مع حقائق الكون الذي وجد فيه، ويبدو أنّ هذا حلمٌ عسير التّحقيق." (انظر: فقه السيرة النبوية للشيخ محمد الغزالي، ص 60، 61).

وتعلّم رسول الله في بادية بني سعد اللسان العربيّ الفصيح، وأصبح فيما بعد من أفصح الخلق، فعندما قال له أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله! ما رأيت أفصح منك؛ فقال الله عليه وسلم: «وما يمنعني وأنا من قريش، وأرضعت في بني سعد» (الرّوض الأنف، للسّهيلي 1/188).

ما يستفاد من حادثة شقّ صدر النبي صلى الله عليه وسلم وهو طفل في بادية بني سعد:

تُعَدُّ حادثة شقِّ الصِّدْرِ الَّتِي حصلت للنبي صلى الله عليه وسلم أثناء وجوده في مضارب بني سعدٍ، من أولى إرهاصات النُّبُوَّة، ودلائل اختيار الله إِيَّاه لأمرٍ جليل (انظر فقه السِّيرة النبوية، للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، ص 47).

وقد روى الإمام مسلم في صحيحه حادثة شقِّ الصِّدْرِ في صغره، فعن أنس بن مالك: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَاهُ جَبْرِيْلُ؛ وَهُوَ يَلْعَبُ مَعَ الْغُلَّامَانِ، فَأَخَذَهُ، فَصْرَعَهُ، فَشَقَّ عَنْ قَلْبِهِ؛ فَاسْتَخْرَجَ الْقَلْبَ، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ عَقَلَةً، فَقَالَ: هَذَا حِطُّ الشَّيْطَانِ مِنْكَ، ثُمَّ غَسَلَهُ فِي طَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ بِمَاءٍ زَمْزَمٍ، ثُمَّ لَأَمَهُ (أي: جمعه، وضمَّ بعضه إلى بعض). انظر شرح النَّوَوِيِّ عَلَى مُسْلِمٍ (216/2)، ثُمَّ أَعَادَهُ فِي مَكَانِهِ، وَجَاءَ الْغُلَّامَانِ يَسْعَوْنَ إِلَى أُمِّهِ - يَعْنِي: ظَنُّرَةَ - فَقَالُوا: إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ، فَاسْتَقْبَلُوهُ؛ وَهُوَ مُنْتَقِعُ اللَّوْنِ. قَالَ أَنَسُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَقَدْ كُنْتُ أَرَى أَثَرَ ذَلِكَ الْمَخِيطِ فِي صَدْرِهِ» أخرج الإمام مسلم في صحيحه (261/162) والإمام أحمد في المسند (149/3) والبيهقي في الدلائل (5/2).

ولا شكَّ أَنَّ التَّطْهِيرَ مِنْ حِطِّ الشَّيْطَانِ هُوَ إِرْهَاصٌ مُبَكِّرٌ لِلنُّبُوَّة، وإعدادٌ للعصمة من الشرِّ، وعبادة غير الله، فلا يحلُّ في قلبه إلا التَّوْحِيدُ الخالص، وقد دلَّت أحداث صباه على تحقُّق ذلك، فلم يرتكب إثماً، ولم يسجد لصنم قط (زعم المستشرق نيكلسون: أَنَّ حَدِيثَ شَقِّ الصِّدْرِ أُسْطُورَةٌ نَشَأَتْ عَنْ تَفْسِيرِ الْآيَةِ {أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ} وَأَنَّهُ كَانَ لَهَا أَوَّلٌ؛ فَعَلَيْنَا أَنْ نَحْمَنَ أَنَّهَا تَشِيرُ إِلَى نَوْعٍ مِنَ الصَّرْعِ، وَهَذَا الَّذِي زَعَمَهُ نَيْكَلْسُونُ سَبَقَهُ إِلَيْهِ الْمُشْرِكُونَ حِينَ اتَّهَمُوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْجُنُونِ، فَنفَى اللَّهُ عَنْهُ ذَلِكَ، بقوله سبحانه: {وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ} التكوير: 22). برغم انتشار ذلك في قريش (انظر: السِّيرة النَّبَوِيَّةُ الصَّحِيحَةُ، للعمري 104/1).

وقد تحدَّث الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي رحمه الله تعالى عن الحكمة في ذلك، فقال: "يبدو: أَنَّ الحكمة في ذلك إعلان أمر الرِّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتهيؤهُ للعصمة، والوحي منذ صغره بوسائل مادِّيَّة؛ ليكون ذلك أقرب إلى إيمان النَّاسِ به، وتصديقهم برسالته. إنَّها - إذًا - عملية تطهير معنويٍّ، ولكنها اتَّخذت هذا الشكل الماديَّ الحسيَّ؛ ليكون في ذلك الإعلان الإلهي بين أَسْمَاعِ النَّاسِ، وأبصارهم (انظر: فقه السِّيرة النَّبَوِيَّة، ص 47). إِنَّ إِيْخْرَاجَ الْعَلَقَةِ مِنْهُ تَطْهِيرٌ لِلرِّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ حَالَاتِ الصَّبَا اللَّاهِيَةِ الْعَابِثَةِ الْمُسْتَهْتَرَةِ، وَاتِّصَافِهِ بِصِفَاتِ الْجَدِّ، وَالْحَزْمِ، وَالْإِتْرَازِ، وَغَيْرِهَا مِنْ صِفَاتِ الرَّجُولَةِ الصَّادِقَةِ، كَمَا تَدُلُّنَا عَلَى عَنَایَةِ اللَّهِ بِهِ، وَحَفْظِهِ لَهُ، وَأَنَّهُ لَيْسَ لِلشَّيْطَانِ عَلَيْهِ سَبِيلٌ (انظر: السِّيرة النَّبَوِيَّة، لأبي فارس، ص 106، 107).

سابعا: الحكمة الربانية من حياة الیتيم التي عاشها الرسول صلى الله عليه وسلم..

لقد ولد الرسول صلى الله عليه وسلم يتيم الأب؛ حيث وضعت أمه آمنة بنت وهب بعد أن قضى أبوه عبد الله نحبه ولم يتجاوز الشهرين عليه الصلاة والسلام في رحم أمه؛ فذاق مرارة اليتيم من جهة أبيه الذي لم يقدر الله لقاءه به. وبعد يتم الأب جاء الدور على اليتيم من جهة الأم، عندما توفيت أمه صلى الله عليه وسلم وهو ابن ست سنين بالأبواء بين مكة والمدينة، وكانت قد قدمت به على أخواله من بني عدي بن النجار ثريه إياهم، فماتت، وهي راجعة به إلى مكة (ابن هشام في السيرة 168/1)، ودفنت بالأبواء، وبعد وفاة أمه كفله جده عبد المطلب، فعاش في كفالتة، وكان يؤثره على أبنائه، أي: أعمام النبي صلى الله عليه وسلم، فقد كان جده مهاب الجانب، لا يجلس على فراشه أحد من أبنائه مهابة له، وكان أعمامه يتهيبون الجلوس على فراش أبيهم، وكان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم يجلس على ذلك الفراش، ويحاول أعمامه أن يُبعدوه عن فراش أبيهم، فيقف الأب الجذ بجانبه، ويرضى أن يبقى جالساً على فراشه متوسطاً فيه الخير، وأنه سيكون له شأن عظيم (انظر: السيرة النبوية، لأبي فارس، ص 101)، وكان جده يحبه حباً عظيماً، وكان إذا أرسله في حاجة جاء بها، وذات يوم أرسله في طلب إبل، فاحتبس عليه (صحيح السيرة النبوية، للعلي، ص 56)، فطاف بالبيت، وهو يرتجل، يقول:

رَبِّ رَدِّ رَاكِبِي مُحَمَّدًا رُدَّهُ لِي وَاصْنَعْ عِنْدِي يَدًا  
فَلَمَّا رَجَعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَجَاءَ بِالْإِبِلِ، قَالَ لَهُ: يَا بَنِي! لَقَدْ حَزَنْتُ  
عَلَيْكَ كَالْمَرْأَةِ، حَزْنًا لَا يَفَارِقُنِي أَبَدًا. (البيهقي في الدلائل (20/2 - 21) والحاكم  
(603/2 - 604)).

وافت المنية عبد المطلب والنبي صلى الله عليه وسلم في الثامنة من عمره (انظر: السيرة النبوية، لأبي فارس، ص 101)، فأوصى جده به عمه أبا طالب، فكفله عمه، وحنَّ عليه، ورعاه (انظر: مدخل لفهم السيرة، ليحيى إبراهيم اليحيى، ص 119).

لقد شاء الله عز وجل واقتضت حكمته البالغة أن ينشأ رسوله صلى الله عليه وسلم يتيمًا، تتولاه عناية الله وحدها، بعيداً عن حياة الدلال والرفاهية ورغد العيش، والمال الذي يزيد في تنعيمه؛ حتى لا تميل به نفسه إلى مجد المال، والجاه، وحتى لا يتأثر بما حوله من معنى الصدارة، والزعامة، فيلتبس على الناس قداسة النبوة بجاه الدنيا، وحتى لا يحسبوه يصطنع الأول ابتغاء الوصول إلى الثاني (انظر: فقه السيرة، للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، ص 46). عاش النبي صلى الله عليه وسلم عليه وسلم شدة البلاء؛ وقسوة المصائب منذ طفولته؛ عندما ولد يتيم الأب؛ ثم أصبح يتيم الأم في سن هو في أمس الحاجة إليهما وإلى حنانهما ودفئهما، ثم فقد من يكفله جده عبد المطلب، فذاق كأس الحزن مرة بعد مرة، وكانت تلك المحن قد

جعلته رقيق القلب، مرهف الشعور، فالأحزان تصهر النفوس وتخلصها من أدران القسوة، والكبر، والغرور، وتجعلها أكثر رقةً، ورحمةً وتواضعاً. وليست وفاة والديه في العشرينات من حياتهما ناشئةً عن هُزالهما، وضعف بُنيتهما، فلم يكن سيدنا محمدٌ صلى الله عليه وسلم سليل أبوين سقيمين، وإنما توفاهما الله بعد أن قاما بالمهمة التي وُجدا من أجلها؛ ليتأسى بسيدنا محمدٌ صلى الله عليه وسلم كلُّ مَنْ فقد والديه، أو أحدهما وهو صغير، وليكون أده، وخلقه مع يُتَمِّه دليلاً على أَنَّ الله تعالى تولى رعايته، وتأديبه؛ وحتى ينشأ قوياً الإرادة، ماضي العزيمة، غير معتمدٍ على أحدٍ في شؤونه، وحتى لا يكون لأبويه أيُّ أثرٍ في دعوته؛ وحتى لا تتدخل يدٌ بشريةً في تربيته، وتوجيهه، فيكون الله - سبحانه وتعالى - هو الذي يتولى تربيته، ولا يتلقَى، أو يتلقن من مفاهيم الجاهلية، وأعرافها شيئاً، إنما يتلقَى من لدن الحكيم الخبير، فالله - سبحانه وتعالى - آواه، وسخر له جده، ثم عمه لتهيئة الجانب المادّي، بينما كانت التربية النفسية، والخُلقية، والفكرية تعهداً ربّانياً، ورعايةً إلهيةً (انظر: فقه السيرة النبوية، للغضبان، ص 84 ، 85).

**ثامناً: الحكمة من امتهان الرسول صلى الله عليه وسلم رعي الغنم مقابل عوض مادي.**

كان أبو طالب مُقلاً في الرزق؛ فعمل النبي صلى الله عليه وسلم برعي الغنم مساعدةً منه لعمه، فلقد أخبر عليه الصلاة والسلام عن نفسه الكريمة، وعن إخوانه من الأنبياء: أنهم رعو الغنم، أمّا هو فقد رعاها لأهل مكة؛ وهو غلامٌ، وأخذ حقه عن رعيه، ففي الحديث الصحيح قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم» فقال أصحابه: وأنت؟ فقال: «نعم؛ كنت أرها على قراريط لأهل مكة» البخاري (2262) وابن ماجه (2149) (189). - القراريط: جزء من الدينار أو الدرهم.

إن رعي الغنم كان يتيح للنبي صلى الله عليه وسلم الهدوء الذي تتطلبه نفسه الكريمة، ويتيح له المتعة بجمال الصحراء، ويتيح له التطلع إلى مظاهر جلال الله في عظمة الخلق، ويتيح له مناجاة الوجود في هدأة الليل، وظلال القمر، ونسمات الأسفار، يتيح له لونا من التربية النفسية: من الصبر، والحلم، والأناة، والرأفة، والرحمة (انظر: محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، لمحمد الصادق عرجون (177/1).

وتذكرنا رعايته للغنم بأحاديثه صلى الله عليه وسلم؛ التي توجه المسلمين للإحسان للحيوانات (انظر: السيرة النبوية الصحيحة، للعمرى 1/106)، فكان رعي الغنم للنبي صلى الله عليه وسلم دربةً، ومراناً له على سياسة الأمم. ورعي الغنم يتيح لصاحبه التحلي بعدة خصالٍ تربويةٍ منها:

1 - الصَّبْر: على الرَّعي من طلوع الشمس إلى غروبها، نظراً لبطء الغنم في الأكل: فيحتاج راعيها إلى الصَّبْر، والتَّحْمُل، وكذا تربية البشر (انظر: مدخل لفهم السَّيرة، ليحيى إبراهيم اليحيى، ص 124).

إنَّ الرَّاعي لا يعيش في قصر منيفٍ، ولا في ترفٍ، وسرفٍ، وإنما يعيش في جوٍّ حارٍّ شديد الحرارة، وبخاصَّةٍ في الجزيرة العربيَّة، ويحتاج إلى الماء الغزير؛ ليذهب ظمأه، وهو لا يجد إلا الخشونة في الطَّعام، وشطف العيش، فينبغي أن يحمل نفسه على تحمُّل هذه الظروف القاسية، ويألفها، ويصبر عليها (انظر: السَّيرة النَّبويَّة، لأبي فارس، ص 114، 115).

2 - التَّواضع: إذ إنَّ طبيعة عمل الرَّاعي خدمة الغنم، والإشراف على ولادتها، والقيام بحراستها، والتَّوم بالقرب منها، وربما أصابه ما أصابه من رذاذ بولها، أو شيء من روثها، فلا يتضجَّر من هذا، ومع المداومة والاستمرار يَبعد عن نفسه الكبر والكبرياء، ويرتكز في نفسه خلق التَّواضع (انظر: السَّيرة النَّبويَّة، لأبي فارس، ص 114، 115).

وقد ورد في صحيح مسلم: أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا يدخل الجنَّة من كان في قلبه مثقالُ ذرةٍ من كِبْرٍ». قال رجلٌ: إنَّ الرَّجل يحبُّ أن يكون ثوبه حسناً، ونعله حسناً. قال: «إنَّ الله جميلٌ يحبُّ الجمال، الكبر: بطرُ الحقِّ، وغمطُ النَّاسِ» مسلم (91) والترمذي (1999) والحاكم (26/1).

3 - الشَّجاعة: فطبيعة عمل الرَّاعي الاصطدام بالوحوش المفترسة، فلا بدَّ أن يكون على جانبٍ كبيرٍ من الشَّجاعة، تؤهِّله للقضاء على الوحوش، ومنعها من اقتراس أغنامه (انظر: السَّيرة النَّبويَّة، لأبي فارس، ص 114، 115).

4 - الرَّحمة، والعطف: إنَّ الرَّاعي يقوم بمقتضى عمله بمساعدة الغنم؛ إن هي مرضت، أم كُسرت، أو أصيبت، وتدعو حالة مرضها وألمها إلى العطف عليها، وعلاجها والتَّخفيف من آلامها، فمن يرحم الحيوان يكون أشدَّ رحمةً بالإنسان، وبخاصَّةٍ إذا كان رسولاً أرسله الله تبارك وتعالى لتعليم الإنسان، وإرشاده، وإنقاذه من النَّار، وإسعاده في الدَّارين (انظر: مدخل لفهم السَّيرة، ص 127).

5 - حبُّ الكسب من عرق الجبين:

إنَّ الله تعالى قادرٌ على أن يغنيَ محمداً صلى الله عليه وسلم عن رعي الغنم، وقدر عليه ذلك تربيةً له، ولأمته للأكل من كسب اليد، وعرق الجبين، فهو عليه السلام أعظم أسوة؛ ورعي الغنم نوعٌ من أنواع الكسب باليد. إنَّ صاحب الدَّعوة يجب أن يستغني وأن يعف عمَّا في أيدي الناس، ولا يعتمد على عطاياهم في حياته، وبذلك تبقى قيمته رفيعة بينهم، وترتفع منزلته، ويبتعد عن الشُّبهات، و يسد ذريعة التَّشكيك والطعن فيه، ويتجرَّد عمله لله تعالى، ويردُّ شبهة الكفرة الظَّلمة، الذين يصوِّرون للنَّاس: أنَّ الأنبياء أرادوا الدُّنيا بدعوتهم (انظر: مدخل

لفهم السيرة، ص 137)، يقول جل في علاه: {قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتْنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ} يونس: 78. هكذا قال فرعون لموسى، ونظراً لسيطرة حب الدنيا وحطامها على عقولهم يظنون: أن أي تفكير، وأي حركة مراد بها الدنيا، ولهذا قال الأنبياء - عليهم السلام - لأقوامهم، مبينين استغناءهم عنهم: {وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ} هود: 29.

روى البخاري عن المقدم رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده» البخاري (2072). ولا شك: أن الاعتماد على الكسب الحلال يكسب الإنسان الحرية التامة، والقدرة على قول كلمة الحق، والصدع بها، وألا يأخذه في الله لومة لائم. (انظر: مدخل لفهم السيرة، ص 127)، وكم من الناس يدعون ويضطئون رؤوسهم للطغاة، ويسكتون على باطلهم، ويجارونهم في أهوائهم خوفاً على وظائفهم عندهم! (انظر: فقه السيرة، للغضبان، ص 93).

إن صاحب أي دعوة لن تقوم لدعوته أي قيمة في الناس، إذا ما كان كسبه، وورقه من وراء دعوته، أو على أساس من عطايا الناس، وصدقاتهم، ولذا كان صاحب الدعوة الإسلامية أحرى الناس كلهم بأن يعتمد في معيشتة على جهده الشخصي، أو مورد شريف لا استجداء فيه؛ حتى لا تكون عليه لأحد من الناس منة، أو فضل في دنياه، فيعوقه ذلك من أن يصدع بكلمة الحق في وجهه، غير مبال بالموقع الذي قد تقع من نفسه.

وهذا المعنى وإن لم يكن قد خطر في بال الرسول صلى الله عليه وسلم في تلك الفترة؛ لأنه لم يكن يعلم بما سيوكل إليه من شأن في الدعوة، والرئاسة الإلهية، غير أن هذا المنهج الذي هياه الله له ينطوي على هذه الحكمة، ويوضح: أن الله تعالى قد أراد ألا يكون في شيء من حياة الرسول صلى الله عليه وسلم قبل البعثة ما يعرقل سبيل دعوته، أو يؤثر عليها أي تأثير سلبي، فيما بعد البعثة. (انظر: فقه السيرة، للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، ص 50).

إن إقبال النبي صلى الله عليه وسلم على رعي الأغنام لقصد كسب القوت والرزق يشير إلى دلائل مهمة في شخصيته المباركة؛ منها: الذوق الرفيع، والإحساس الدقيق للذات جمل الله تعالى بهما نبيه صلى الله عليه وسلم. لقد كان عمه يحوطه بالعناية التامة، وكان له في الحنو، والشفقة كالأب الشفوق، ولكنه صلى الله عليه وسلم ما إن أنس في نفسه القدرة على الكسب حتى أقبل يكتسب، ويتعب نفسه

لمساعدة عمه في مؤونة الإنفاق، وهذا يدلُّ على شهامةٍ في الطبع، وبرٍّ في المعاملة، وبذلٍ للوسع في الخير (انظر: فقه السيرة، للبوطي، ص 50).  
والدلالة الثانية تتعلّق ببيان نوع الحياة التي يرتضيها الله تعالى لعباده الصّالحين في دار الدُّنيا، لقد كان سهلاً على الله تعالى أن يهيء للنبيّ صلى الله عليه وسلم - وهو في صدر حياته - من أسباب الرّفاهية، ووسائل العيش ما يغنيه عن الكدح، ورعاية الأغنام سعياً وراء الرّزق، ولكنّ الحكمة الربّانيّة تقتضي منا أن نعلم: أنّ خير مال الإنسان ما اكتسبه بكّد يمينه، ولقاء ما يقدمه من الخدمة لمجتمعه وبني جنسه، وشرُّ المال ما أصابه الإنسان وهو مستلق على ظهره دون أن يرى أيّ تعب في سبيله، ودون أن يبذل أيّ فائدة للمجتمع في مقابله. (انظر: فقه السيرة، للبوطي، ص 50).

**تاسعا: الحكمة الإلهية من عصمة الله تعالى وحفظه للرسول صلى الله عليه وسلم.**

لقد صان الله عز وجل نبيّه عليه الصلاة والسلام عن شرك الجاهليّة، وعبادة الأصنام. روى الإمام أحمد في مسنده عن هشام بن عروة، عن أبيه، قال: حدّثني جارٌ لخديجة: أنّه سمع النبيّ صلى الله عليه وسلم وهو يقول لخديجة: «أي خديجة! والله لا أعبد اللّات، والعزى أبداً» أحمد (222/4) و(362/5). قال: وهي أصنامهم التي كانوا يعبدون، ثمّ يضطجعون. وكان لا يأكل ما ذبح على النّصب، ووافق في ذلك زيد بن عمرو بن نفيل.

وقد حفظه الله تعالى في شبابه من نزعات الشّباب، ودواعيه البريئة، التي ينزع إليها أقرانه بالطبع والغريزة، ولكنّها لا تلائم وقار الهداة، وجلال المرشدين (انظر: محمّد رسول الله صلى الله عليه وسلم، لمحمّد الصادق عرجون 51/1).  
فعن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «ما هممت بقبيح ممّا كان أهل الجاهليّة يهْمون به، إلا مرّتين من الدّهر، كلتيهما يعصمني الله منهما، قلت ليلةً لفتى كان معي من قريش بأعلى مكّة في أغنام لأهله يرعاها: أبصر إليّ غنمي حتّى أسمر هذه اللّيلة بمكّة، كما يسهر الفتيان. قال: نعم. فخرجت، فجنّت أدنى دار من دور مكّة، سمعت غناءً، وضرب دفوفٍ، ومزامير، فقلت: ما هذا؟ فقالوا: فلان تزوّج فلانة - لرجلٍ من قريش تزوّج امرأة من قريش - فلهوت بذلك الغناء وبذلك الصّوت حتى غلبتني عيني، فما أيقظني إلا حرُّ الشّمس، فرجعت؛ فقال: ما فعلت؟ فأخبرته، ثمّ قلت له ليلةً أخرى مثل ذلك، ففعل، فخرجت؛ فسمعت مثل ذلك، فقيل لي مثل ما قيل لي، فلهوت بما سمعت حتى غلبتني عيني، فما أيقظني إلا مسُّ الشّمس، ثمّ رجعت إلى صاحبي، فقال: فما فعلت؟ قلت: ما فعلت شيئاً.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «فوالله ما هممت بعدها بسوءٍ ممّا يعمل أهل الجاهليّة، حتّى أكرمني الله بنبوّته» أبو نعيم في الدلائل (128) والبيهقي في السنن الكبرى (33/2 - 34) والبخاري (2403) ومجمع الزوائد (226/8).

وهذا الحديث يحيلنا إلى إدراك حقيقتين كلاهما على جانب كبير من الأهميّة:

1 - إنّ النّبِيَّ صلى الله عليه وسلم كان متمتعاً بخصائص البشريّة كلّها، وكان يجد في نفسه ما يجده كلُّ شابٍّ من مختلف الميول الفطرية، التي اقتضت حكمة الله أن يجعل النّاس عليها، فكان يُحسُّ بمعنى السّمَر واللّهو، ويشعر بما في ذلك من متعة، وتحديثه نفسه: لو تمتّع بشيءٍ من ذلك، كما يتمتّع الآخرون.

2 - إنّ الله - عزّ وجلّ - قد عصمه مع ذلك من جميع مظاهر الانحراف، ومن كلّ ما لا يتفق مع مقتضيات الدّعوة التي هيأه الله لها (انظر: فقه السيرة النّبويّة، للبوطي، ص 50، 51).

**عاشرا: الحكمة من لقاء النبي صلى الله عليه وسلم رفقة عمه بالراهب بحيرا.**

ممّا يمكن الاستفادة من قصّة بحيرا عدّة أمور؛ منها:

1 - إنّ الصّادقين من رهبان أهل الكتاب؛ الذين انقطعوا لعبادة الله سبحانه؛ والتقرب منه بالزهد في الدنيا ومتاعها؛ يعلمون علم اليقين أنّ سيدنا محمّداً صلى الله عليه وسلم هو الرّسول الذي سيرسله الله سبحانه للبشريّة، وهو خاتم الرسل؛ وعرفوا ذلك لِمَا وجدوه من أماراتٍ وأوصافٍ عنه في كتبهم السماوية التي صرح فيها البيان الرباني ببعثته واستكمال دور الرسل من قبله في إصلاح العقيدة والدعوة للتوحيد وتصحيح السلوك والتحلي بالأخلاق الفاضلة...

2 - سجد الشجر والحجر للنّبِيَّ صلى الله عليه وسلم، وتظليل الغمام له، وميل فيء الشجرة عليه في رحلته مع عمه إلى الشام دليل نبوته وتفاعل الكون معه.

3 - إنّ النّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قد استفاد من سفره وتجوله مع عمه، وبخاصّة استفادته عليه السلام من أشياخ قريش؛ حيث أطلع على تجاربهم، وخبرتهم، واستفاد من آرائهم، فهم أصحاب خبرة، ودراية، وتجربة لم يمرّ بها النّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قط في سببه تلك.

4 - حذر بحيرا من النّصارى، وبيّن أنّهم إذا علموا بقدم النّبِيَّ صلى الله عليه وسلم فإنّهم سيقتلونه، وناشد عمّه، وأشياخ مكّة ألا يذهبوا به إلى الرّوم؛ فإنّ الرّوم إذا عرفوه بالصّفة سيقتلونه. لقد كان الرّومان على علم بأنّ مجيء هذا الرّسول سيقتضي على نفوذهم الاستعماريّ في المنطقة، ومن ثمّ فهو العدو الذي سيقتضي على مصالح دولة روما، ويعيد هذه المصالح إلى أربابها، وهذا ما يخشاه الرّومان. وعموما فهذه الأحداث ما هي إلا امتداد للسنة الإلهية القاضية بتدافع الحق والباطل، والله تعالى ناصر نبيه راعيه وحافظه من أعدائه من الكفرة الذين يترصدونه للتخلص منه ونصرة ما هم عليه من الباطل، ولكن الله عز وجل قاض





(إِنَّ الْفُضُولَ تَعَاقَدُوا وَتَحَالَفُوا أَلَّا يُقِيمَ بِيْطْنَ مَكَّةَ ظَالِمٌ أَمْرٌ عَلَيْهِ تَعَاقَدُوا وَتَوَاتَفُوا  
فَالْجَارُ وَالْمُعْتَرُ - المعتز: الزائر من غير البلاد - فيهم سالم)

وقد حضر النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا الحلف الذي هدموا به صرح الظُّلم،  
ورفعوا به منار الحقِّ، وهو يعتبر من مفاخر العرب، وعرفانهم لحقوق الإنسان  
(انظر: السيرة النبوية، لأبي شهبه 214/1)، وقد قال صلى الله عليه وسلم:  
«شهدت حلف المطيبين مع عمومتي؛ وأنا غلام، فما أحبُّ أن لي حُمْرَ النَّعْمِ وَأَنِّي  
أُنْكثُهُ» "أحمد (190/1) والبخاري في الأدب المفرد (567) وأبو يعلى (844)  
و845 و846"

وقال أيضاً: «لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحبُّ أن لي به حُمْرَ  
النَّعْمِ، ولو دعيتُ به في الإسلام لأجبت» البيهقي في السنن الكبرى (367/3)  
وابن هشام (141/1 - 142).

ما يستفاد من الحكم والدروس والعبر من مشاركة النبي صلى الله عليه وسلم  
حلف الفضول:

1 - العدل من صفات الله عز وجل وهو قيمة مطلقة، وليست نسبية، وإنَّ الرَّسُولَ  
صلى الله عليه وسلم كما ورد في الروايات قد أظهر سعادته واعتزازه بالمشاركة  
في تعزيز مبدأ العدل قبل بعثته ببعدين من الزمن، فالقيم والأخلاق الإنسانية  
الإيجابية تستحق الإشادة بها والتنويه بمن تمسك وتحلى بها حتى لو صدرت من  
أهل الجاهلية (انظر: السيرة النبوية الصحيحة، للعمري 112/1).

2 - كان حلف الفضول واحةً في ظلام الجاهلية، وفيه دلالة بيّنة على أنَّ شيوع  
الفساد في نظام، أو مجتمع لا يعني خلوه من كلِّ فضيلة، فمكة مجتمع جاهلي  
هيمنت عليه عبادة الأوثان، والمظالم، والأخلاق الدميمة، كالظلم، والزنى، والربا،  
ورغم ذلك كان فيه رجال أصحاب أخلاق ومبادئ الحق والعدل والنخوة،  
والمروءة، يكرهون الظلم، ولا يقرُّونه، وفي هذا درسٌ عظيمٌ للدعاة في  
مجتمعاتهم؛ التي لا تُحكَّم الإسلام، أو يُحارب فيها الإسلام (انظر: فقه السيرة  
النبوية، للغضبان، ص 110)

3 - إنَّ الظُّلم لا تقبل به الفطرة السوية السليمة فهو مرفوضٌ بكلِّ صورته  
وتمثلاته، ولا يشترط الوقوف ضدَّ الظالمين فقط عندما ينالون من الدعاة إلى الله،  
بل مواجهة الظالمين قائمة؛ ولو وقع الظلم على أقلِّ الناس شأنًا (انظر: فقه السيرة  
النبوية، للغضبان، ص 110). إنَّ الإسلام بأحكامه وتعاليمه وقيمه يحارب الظلم،  
ويقف بجانب المظلوم والمستضعف كيفما كان معتقده ودينه ولونه ووطنه وجنسه  
... (انظر: السيرة النبوية، لأبي فارس، ص 121).

4 - جواز التحالف والتعاهد على فعل الخير؛ فهو من قبيل التعاون المأمور به في القرآن الكريم. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نَقَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [المائدة: 2] .

ويجوز للمسلمين أن يتعاقدوا في مثل هذه الحال؛ لأنه تأكيدٌ لشيءٍ مطلوبٍ شرعاً، على ألا يكون ذلك شبيهاً بمسجد الضرار، بحيث يتحوّل التعاقد إلى نوع من الحزبية الموجهة ضد مسلمين آخرين ظلماً، وبغياً، وأمّا تعاقد المسلمين مع غيرهم على دفع ظلم، أو في مواجهة ظالم؛ فذلك جائزٌ شرعاً وقد قامت الأدلة على ذلك، على أن تُلاحظ في ذلك مصلحة الإسلام والمسلمين في الحاضر والمستقبل، وفي هذا الحديث دليلٌ، والدليل فيه قوله النبي صلى الله عليه وسلم: «ما أحبُّ أن لي به حُمْرُ النَّعَمِ» - تقدم تخريجه -؛ لما يحقق من عدلٍ، ويمنع من ظلم، أو النكت به مقابل حمر النعم، وقوله عليه الصلاة والسلام: «ولو دعيت به في الإسلام لأجبت» - تقدم تخريجه - ، ما دام أنه يردع الظالم عن ظلمه، وقد بيّن صلى الله عليه وسلم استعداده للإجابة بعد الإسلام لمن ناداه بهذا الحلف.

5 - على المسلم أن يكون في مجتمعه إيجابياً فاعلاً، لا أن يكون رقماً من الأرقام على هامش الأحداث في بيئته ومجتمعه، فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم محط أنظار مجتمعه، وصار مضرب المثل فيهم، حتّى إنهم لقبوه بالأمين، وقد هفت إليه قلوب الرجال والنساء على السواء؛ بسبب الخلق الكريم الذي حبا الله تعالى به نبيّه صلى الله عليه وسلم، وما زال يزكو، وينمو؛ حتّى تعلقت به قلوب قومه، وهذا يعطينا صورةً حيّةً عن قيمة الأخلاق في المجتمع، وعن احترام صاحب الخلق ولو في المجتمع المنحرف (انظر: فقه السيرة، للغضبان، ص 110 ، 111).

6- مشاركة النبي صلى الله عليه وسلم في حلف الفضول ترسيخٌ لقيم السلم والأمن بين المسلمين فيما بينهم، وبينهم وبين غيرهم من الأمم: لا يمكن للحضارات أن تقوم دون أمن وسلم بين أفراد الأمة، لذلك تعتبر مشاركة النبي صلى الله عليه وسلم في حلف الفضول قبل بعثته إشارةً قويّةً إلى أن الله سبحانه قد سخره لإحياء قيم الحق والعدل والمساواة وترسيخها في واقع الناس وحياتهم، كما سخر الأنبياء والرسل من قبله، وهذا سرّ نجاح الدعوة الإسلامية، وتشبيد الحضارات وقوتها ونجاحها واستمرارها..

**ثلاثة عشر: زواج النبي صلى الله عليه وسلم بأُم المؤمنين خديجة بنت خويلد وما ينطوي عليه من الحكم.**

1-منزلة الزوجة الصالحة في نجاح الإنسان في مهامه الدينية والدينية وأم المؤمنين خديجة رضي الله عنها خير مثال على ذلك فقد شاع صلاحها بين الناس في الجاهلية حتى لقبوها بالعفيفة الطاهرة فكانت بحق سندا عظيما في حياة الرسول عليه السلام لذلك احتلت مكانة عالية جدا في قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم {وردت في ذلك روايات كثيرة منها ما في الصحيحين عن علي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «خير نسائها مريم بنت عمران وخير نسائها خديجة بنت خويلد»

2-ترفع النبي صلى الله عليه وسلم عن المتعة الجسدية {الجنسية} إذ لو كان طالبا لها لبحث في زواجه عن زوجة تقل عنه سنا أو توازيه على الأقل خاصة وهو في ريعان شبابه خلافا لما ادعاه بعض المستشرقين ومن سار على نهجهم. فرسول الله عليه السلام رغب في خديجة رضي الله عنها لسمو أخلاقها؛ ومحاسن فضائلها وجمال شيمها التي شهد به قومها.

3-نجاح الحياة الزوجية رهين بما يجمع الزوجين من حب صادق؛ وإخلاص مستمر ويتجلى ذلك في زواج سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بأُم المؤمنين السيدة خديجة رضي الله عنها حيث استمر إلى وفاتها في عمر خمسة وستين سنة والرسول عليه السلام ناهز الخمسين سنة دون أن يفكر عليه السلام في تعدد الزوجات.

**الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلّم وبارك على نبينا سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى به إلى يوم الدين.**

